مفاهيم فلسفية

أ. د. مصطفى النشار

فلسفة السعادة

مكتبة الدار العربية للكتاب

مفاهيـــم فلسـفيـــة

فلسفة السعادة

النشار، مصطفى، 1953 -

فلسـفة السعادة/ مصطفى النشـار .- ط1.- القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2018.

112 ص؛ 20 سم. -(سلسلة مفاهيم فلسفية).

تدمك: 0 - 753 - 293 - 977 - 978

1- السعادة (فلسفة).

أ- العنوان. 131

رقم الإيداع: 14980 /2018

©

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2018م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الدار العربية للكتاب، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

مفاهيم فلسفية

أ. د. مصطفى النشار

فلسفة السعادة

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

مكتبة الدار العربية للكتاب

إهداء

إلى فارس العرب

وفيلسوف السعادة والإيجابية

سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم

ذلـك الرجل الـذي أعطى المثل والقدوة لكيف تكون سـعادة الشـعوب هي هدف القادة والحـكّام فتحقق له ما أراد على أرض دولة الإمارات العربية المتحدة.

مفاهيم فلسفية

«التسامح»، «التعصب»، «السعادة»، «الحرية»، «المجتمع المدني»، «المواطنة»، «حقوق الإنسان»، «الديمقراطية»، «المشاركة السياسية»، «الدولة»، «الحكومة»، وغيرها وغيرها من تلك المصطلحات والمفاهيم التي تتردد كثيرا على ألسنتنا صباح مساء ونتحدث بها وعنها دون أن نعرف معناها الحقيقي، أعتقد أنه قد آن أوان أن نتعرف عليها من المتخصصين ، وما ذلك إلا لأنها في واقع الأمر مصطلحات فلسفية عميقة الدلالة وعظيمة الأهمية، وكل واحد منها نشأ في ظروف معينة وفي عصر بعينه وسرعان ما اتخذ معاني شتى وسرت عليه تغيرات عديدة في المغزى والمعنى وربما اكتسب أرضًا هنا ولدى أبناء حضارة معينة ورفض هناك لدى أبناء حضارة أخرى، إنه في ذلك أشبه بالكائن الحي الذي يولد وينمو وتسري عليه عملية النمو والنضج كمًّا وكيفًا، لكن لأنه مصطلح فلسفي عادة ما يعلو على العصر الذي نشأ فيه وعلى أول مَن استخدمه من الفلاسفة وتسري عليه عمليات التغير تبعًا لكل جيل من أجيال البشر الذين يتلقونه فيؤثر فيهم ويتأثر برؤيتهم له، تتطور به حياتهم وتتطور صورته ومعناه وفقًا لهذه الرؤية أو تلك..

إن تلك المفاهيم الفلسفية إذن هي ابنة كل العصور، ولكل فيلسوف رؤيته الخاصة حولها طبقًا لطبيعة العصر الذي وجد فيه وتبعًا للبيئة التي تربى ونشأ في ظلها، ولأن ذلك كذلك فليس من حق أحد أن يفرض رؤيته الخاصة لأي من هذه المفاهيم على غيره، وعلى الجميع أن يحترم رؤية الآخر ويتفهم وجهة نظره، فالحقيقة الفلسفية حمالة أوجه وهي نسبية بنسبية العصر وبنسبية وجهة نظر صاحبها.

ومن هنا تكتسب هذه المفاهيم والرؤى المختلفة حولها مصداقيتها وتطورها عبر العصور ويتلقاها الناس في كل عصر حسب تصوراتهم ووفقًا للتطورات التي يعايشونها علميًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا.

ولا ينبغي أن يتصور أحد أن الإنسان - أي إنسان - يمكنه أن يعيش بدون أن يستخدم هذه المفاهيم ويتفاعل معها حسب ظروف عصره وضروراته وحسب معتقداته وقيمه الخاصة. إن هذه المفاهيم تمثل التصورات الرئيسية التي لا غنى للإنسان عنها فكرًا وسلوكًا.

ولكل ذلك كان من الضروري أن تصدر هذه السلسلة من الكتب حول هذه المفاهيم مستهدفة توضيحها ومعرفة منشأ كل واحد منها ومسيرة تطوره ومدى تأثيره في كل عصر، وقبل كل ذلك وبعده معرفة معناه ومغزاه وكيف ساهم في تطور الحياة الإنسانية عبر العصور.

والله نسأل أن تؤدي هذه السلسلة دورها في حركة التنوير العربية المعاصرة وأن تحقق الفائدة المرجوة منها في دفع شباب الأمة إلى المزيد من التعمق والقراءة والحوار حول هذه المفاهيم لتكتسب - برؤيتنا حولها وبصبغها بروحنا الفكرية الخاصة - المواطنة في فكرنا العربي المعاصر لعلنا ننتقل

عبر الوعي بها وبعد إكسابها الطابع العربي الخاص من عصر الجمود الفكري والعداء للآخر إلى عصر ننطلق فيه بكل قوة إلى نهضة جديدة ومجتمع جديد قادر على مواجهة التحديات والمشاركة الإيجابية في حضارة العصر.

والله الموفق وهو المستعان على كل ما نصبو إليه ونطمح إلى تحقيقه وهو من وراء القصد ..

مصطفى النشار

***

مقدمة

قال أرسطو قديمًا: «إن الشباب سيئ الاستماع إلى الموضوعات الأخلاقية»، ولعل ذلك هو ما دعاه إلى أن يهدي كتابه الأخلاقي الأشهر «الأخلاق إلى نيقوماخوس» إلى ابنه نيقوماخوس، ربما ليدفعه هو وأقرانه إلى قراءة هذا الكتاب المهم والعمل بما فيه، وسواء نجح أرسطو في مهمته تلك أم لا فالسؤال الأهم هو: لماذا قال أرسطو ذلك؟ وهل صحيح أن الشباب سيئ الاستماع إلى الموضوعات الأخلاقية؟!

الحقيقة فيما أرى أن الشباب قد يكون لديهم ما يبرر ذلك، حيث إن الكبار عادة ما يوجهون الأوامر الأخلاقية: «افعل كذا» أو «لا تفعل كذا» إلى أبنائهم من الشباب، وبالطبع فقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أن الشباب في سن الصبا والمراهقة لا يحبون إلقاء الأوامر من علٍ، فضلًا عن أنهم عادة ما يهتمون في هذه الفترة من العمر بإثبات شخصيتهم المستقلة واكتشاف رؤيتهم الخاصة حول كل ما يجري حولهم. فالشباب في هذه المرحلة العمرية يهوى الاعتماد على النفس والبُعد عن أي مؤثرات خارجية قدر الإمكان. ولا ضير في ذلك مطلقًا. والحقيقة أننا ينبغي أن نشجعهم على ذلك، وندفعهم دفعًا إليه بدلًا من الإكثار من إسداء النصائح وتقديم الاستشارات وإلقاء الأوامر إليهم. فمرحلة الشباب هي المرحلة التي تتبلور فيها بالفعل الرؤى المستقلة

وتبرز فيها سمات الشخصية المتفردة لهذا الشاب أو ذاك، إذ عندها يكتشف هو بنفسه ولنفسه ميوله الحقيقية ويحاول أن يحققها بذاته لذاته.

وعلينا إذا ما كان الأمر يعنينا حقًّا أن لا نتدخل بشكل مباشر لنحد من هذه القدرات أو نضع أمامهم العراقيل ونكبلهم بالقيود، بل على العكس علينا أن نساعدهم في هذه الفترة على الاستقلال الذي يبدو في محاولتهم التمرد على كل ما هو تقليدي موروث والتحرر من كل ما يكبل حركتهم الحرة في الحياة.

علينا أن نجعل خبرتنا في الحياة في خدمة هذه التوجهات المستقلة لديهم، فإن سألونا النصح ننصح، وإن استشارونا فيما يفعلون أشرنا عليهم بما نرى دون أن نصور لهم أن هذا الذي نقول هو الحق المطلق وأن عليهم أن يمتثلوا لما نقول أو لما ننصح به. وليدرك كل منَّا حقًّا أن ثمة اختلافًا بين الأجيال وأن كل جيل جاء ليضيف جديدًا ولم يأتِ ليقلد ويتتبع خطوات الأجيال السابقة حذو النعل بالنعل. إن أُفق الحرية الذي يشعر به الشباب في هذه الحقبة من عمرهم ينبغي أن نوسعه أمامهم ولا نضيقه عليهم بحال!

أما كون الشباب عمومًا سيئ الاستماع إلى الموضوعات الأخلاقية فهذا قول فيه شيء من الصواب نتيجة لما كشفنا عنه في الفقرة السابقة من أن الشباب في هذه المرحلة يحب الاستقلال ويميل إلى إثبات ذاته. ولا يعني ذلك بالطبع أنه لا يحب الحديث في الموضوعات الأخلاقية أو يرفض السلوك الفاضل! فكم من شبابنا يمتثل لأوامر الآباء ويخضع لنواميس وعادات وتقاليد المجتمع للدرجة التي قد تجعلهم مسخًا غير قادرين على التفكير المستقل ومن ثم يصبحون غير مؤهلين للإبداع الذي يرتبط عادة بالتفكير المستقل، غير المقلد، الرافض للاجترار والتلقين!

وعلى ذلك وفيما يتصل بموضوع كتابنا هذا عن فلسفة السعادة الذي أوجهه في الأساس إلى شباب الأمة، كان يعنيني جدًّا أن لا يكون في صورة نصائح وإرشادات، بل كان يعنيني في المقام الأول أن يقرأ الشباب عن تصورات الفلاسفة عن السعادة من خلال تصنيف مقولاتهم عنها وليس من خلالهم هم كأشخاص. إن لكل فيلسوف تجربته الفكرية ورؤيته المذهبية الفلسفية، وليس من المفروض هنا أن نسمح للفيلسوف أن يلقنهم هذا المذهب أو هذه الرؤية، بل الأهم من ذلك أن نقدم رأي هذا الفيلسوف أو ذاك من خلال ما يمكن أن يثار من تساؤلات في أذهان الشباب عن السعادة عمومًا: ما هي؟ وما هي مسبباتها؟ وما هي مضاداتها؟ وهل يمكن أن نتغلب على هذه المنغصات للسعادة فنحولها إلى مسببات لها؟! وما علاقة السعادة بالحب؟ وما علاقتها بالعمل؟ وما علاقتها بالفضيلة؟! وهل ثمة سعادة إيجابية وأخرى سلبية؟!

كل هذه تساؤلات قد تثار في أذهان الشباب ولا يجدون إجابة محددة عنها. وهذا الكتاب لن يقدم هذه الإجابة المحددة، بل يحاول أن يكشف عن جوانب من الحقيقة حول هذه التساؤلات لتكون كإجابات متنوعة حول هذه التساؤلات يأخذ منها المهتم بالموضوع ما يشاء ويعلق عليه بما يشاء ويعدل فيه كيفما يشاء، المهم أن يدخل مع هذه الآراء في حوار عقلي بغرض الوصول إلى رؤيته الخاصة حولها بما يتناسب مع خلفيته الفكرية وبيئته الاجتماعية وبما يجعله يتوافق مع المجتمع الذي يعيش فيه بشكل إيجابي.

لقد سألت يومًا أحد الشباب النابه لعلي أسترشد بإجابته: ما هي السعادة في نظرك؟ وما الذي يسعدك في هذه الحياة؟! فكانت إجابته صادمة لي بعض الشيء، إذ أجاب: يسعدني أن أكون قادرًا على تحريك الآخرين من حولي

ليحققوا أهدافي الخاصة في الحياة، وبقدر قدرتي على تحريكهم في هذا الاتجاه دون أن يشعروا بذلك تكون سعادتي في الحياة!! وأضاف أن ثمة أناسًا في هذا العالم قادرون على فعل ذلك، ليس فقط على مستوى الأفراد في مجتمعهم، بل على مستوى العالم كله!! ولما رآني قد اتسعت دهشتي قال إنه لا يعرف مَن هم هؤلاء الناس بالضبط ولا يعرف كيف يستطيعون فعل ذلك وتوجيه كل ما في العالم لخدمة أغراضهم الخاصة، لكنه يعرف أنه ذات يوم سيصبح واحدًا منهم. إنهم الأكثر ثراءً والأكثر ذكاءً والأكثر قدرة على الاستمتاع بأطايب الحياة. ولم يخلق الآخرون إلا لخدمتهم وتحقيق أهدافهم. إنه وهو معهم - رغم أنه لا يعرفهم - سيصبح الآمر الناهي، وفي ذلك تكمن سعادته وستزداد يومًا بعد يوم بزيادة قدرته معهم على التحكم في سير حركة الحياة البشرية في هذا العصر!

لقد حاولت مناقشة هذا الشاب فيما قال لكنه رفض الاستمرار في المناقشة قائلًا: إن المناقشة معي لا طائل من ورائها وهي ستكون بمثابة ضياع لوقته، فهو لا يزال ينمي قدراته في هذا الاتجاه لعله يلحق بركب هؤلاء السادة الذين يحركون العالم من خلف الستار! إنه يرفض مناقشتي لأنها ستكون بمثابة اتهامات له بالانتساب إلى جماعات أرى أنها جماعات عنصرية متطرفة وأنها جماعات استعلائية تنتهج نهجًا متسلطًا على عامة البشر والدول في هذا هذا العالم الممتد شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا!!

لقد كانت هذه الرؤية العجيبة لشاب معولم من شباب هذا الزمان الذي يؤمن بهذه الصورة الغريبة من المواطنة الإلكترونية التي يرى فيها نفسه واحدًا من هؤلاء القوم الافتراضيين الذين يحكمون العالم من وراء ستار، كانت حافزًا شديدًا لي لأتأمل نوع السعادة التي يراها لنفسه! وهل هي حقًّا السعادة

التي ينبغي أن ينشدها جميع مَن هم في عُمره؟! وإذا ما افترضنا إمكانية تعميم هـذه الرؤية لتكون هي الرؤية الافتراضية للسـعادة في نظر أبناء هذا الجيل من الشـباب، فمَن سـيتحكم فيمَن مِن البشـر، وأيهم سـيكون السـيد حيئنذ وأيهم سيكون من العبيد؟!

تساؤلات كثيرة أخذت تترى على عقلي كان أبسطها أنني أصبحت أصدق رؤية لوتشيانو فلوريدي ذلك الفيلسوف المعاصر الذي يرى أننا نعيش بالفعل عصر الثورة الرابعة وأن مواطنتنا أصبحت مواطنة افتراضية وأننا أصبحنا نعيش كعقول وكأجسـاد شـفافة في ذلك العالم الافتراضي من المعلومات المتدفقة دون أن ندري مصادرها ولماذا هي وإلى أي غاية تقودنا، وكيف يمكننا التحكم فيها!! وما هي طبيعة الخير منها وما هو وجه الشر فيها!!

علـى كل حال، لقد أفقت من كل هذه التسـاؤلات لأعـود إلى نقطة البداية التـي ينبغي أن تكون بالفعل، ألا وهـي: أنه مهما كانت التطورات التكنولوجية التـي نعيـش فيها، فإنهـا لا ينبغي أن تحجب رؤيتنـا الثاقبة حينما نتسـاءل: مَن نحن؟! وما الذي يسـعدنا حقًّا بوصفنا بشـرًا لنا أجساد مادية، ولنا أرواح قادرة على التحليق بعيدًا عن هذا الواقع المادي؟!

إن العودة إلى الأصل والتساؤل عن الطبيعة الحقة للإنسان أيًّا كانت طبيعة التطورات التي عاشـها ويعيشـها في هذه الحقبة الزمنية أو تلك، هو التسـاؤل الجديـر بالإشـارة إلى الصـورة الحقيقية التـي ينبغي أن نتوصل إليها للسـعادة الإنسـانية. ولا شـك أن هذه الصورة لها مسلماتها التي لا يخطئها عقل متأمل، يبحث عن الحقيقة وسـط كل هذه الظـروف المعقدة والتطورات التكنولوجية المتلاحقة والفراغ الفضائي اللا محدود.

وهذه المسلمات هي:

1) أننا بشر نتميز عن غيرنا من كائنات هذا العالم بامتلاك العقل والقدرة على الفهم والاكتشاف والتفسير والتطوير في حياتنا على مر الزمن.

2) أن الإنسان الفرد لا يمكن أن يحيا وحده، ومن ثم فعلى علاقته بغيره يُبنى الكثير من أوجه السعادة التي يشعر بها.

3) أننا في هذا العالم لنعمر لا لنخرب ويتحكم كل منَّا في الآخر، بل إن التعمير يقوم على التعاون بين البشر والتشارك في الفعل وفي جني الثمار.

4) أن أساس الاجتماع البشري نابع من ثنائية الذكر والأنثى، الرجل والمرأة، فبهما يبدأ الاجتماع البشري من مجتمع الأسرة إلى مجتمع الدولة.

5) أن الأساس الحقيقي لاجتماع البشر سواء في علاقة الرجل بالمرأة أو في أي علاقة ثنائية أو متعددة الأطراف يقوم على الحب وليس على الصراع.

6) ومن ثم، وبناء على ما سبق، فإن السعادة ليست فعلًا فرديًّا، بل هي فعل تشاركي، فكما أن الآخر – على حد تعبير الفلاسفة الوجوديين وخاصة سارتر – يمكن أن يكون الجحيم، فهو أيضًا يمثل إذا قامت علاقتنا على المحبة والتعاون الجنة الحقيقية بالنسبة لي.

7) أن ثمة أفقًا للسعادة البشرية لا ينبني على علاقة البشر ببعضهم بعضًا، بل ينبني على علاقة إيمانية شديدة التأثير في حياتهم هي علاقة الإنسان بخالقه ومبدع هذا الكون. إنها تلك العلاقة الربوبية التي تُشعر الإنسان كفرد وكجماعة بالطمأنينة والسلام الداخليين. ويبعد الإنسان عن شبح القلق والخوف بقدر ما يدرك طبيعة هذه العلاقة الشفافة التي يرتبط فيها الجزء بالكل، الوجود

الجزئي بالوجود الكلي، الإنسان بالإله، إن هذا هو الأفق الإيماني للسعادة، إنها السعادة الروحية التي لا يعرفها إلا مَن جرَّب العيش وفقًا لها.

إن ما سنقدمه في هذا الكتاب ليس إلا أصداء أكثر تفصيلًا لهذه المسلمات السبع، وبقدر ما يتفاعل قارئنا العزيز مع هذه المسلمات المبدئية ستكون التفاصيل أكثر امتاعًا له.

وعلى الله قصد السبيل وهو الموفق والمستعان.

د. مصطفى النشار

مدينة 6 أكتوبر 24/ 12/ 2017م

الموافق 6 ربيع آخر 1439هـ

الفصل الأول
السعادة ومنغصاتها

ما السعادة؟!

سؤال يردده الإنسان، أي إنسان، منذ بدء الخليقة وحتى الآن حينما تزداد قتامة الحياة ويجد أن طرق التماسها مسدودة الأفق أمامه!

وبالطبع فإن طرق التماس هذا الذي يسمى "سعادة» عديدة لدرجة أنني موقن أنها ربما تتعدد بتعدد أفراد البشر وعلى مر العصور؛ فكل منَّا يلتمس السعادة في ضوء متطلباته الأساسية في الحياة وفي ظل ظروف عصره والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وفي ضوء إمكانياته وطموحاته. ولما كانت طموحات الإنسان لا تتوقف عند حد، إذ كلما حقق أحدها بدت أمامه طموحات أخرى تتجدد بتجدد آماله وغاياته في الحياة، أقول لما كانت طموحات الإنسان لا تتوقف عند حد فإن معنى ذلك أن أفق السعادة التي يتمناها لنفسه يتسع شيئًا فشيئًا، وكأن تلك السعادة أصبحت سرابًا يلاحقه ولا يكاد يتوصل إلى نهايته ومغزاه أبدًا.

ولعل ذلك هو ما يدعو المرء إلى التواضع حينما يصف السعادة، إذ ليس لها في النهاية ذلك التعريف الجامع المانع الذي يكاد البشر يتفقون عليه!

إنني أرى السعادة الحقيقية في تلك الابتسامة التي لا تفارق وجه الإنسان الرائق الذي يرضى بما قسمه الله له في هذه الحياة. وتلك الابتسامة القنوعة

الراضية هي التي تلخص معنى السعادة الحقيقية دون أن تميز إنسانًا على آخر لا بطبقته ولا بما يملك من مال أو جاه أو سلطان.

إن الإنسان السعيد ببساطة هو الإنسان الذي يرضى بموقعه من الحياة دون أن يتغافل عن الممكنات التي يمكن أن يحقق بها أهدافه وطموحاته في الحياة؛ إذ لا يجري وراء تحقيق هذه الطموحات لاهثًا حتى تنقطع أنفاسه، بل يسعى إلى تحقيقها في تؤدة وهدوء مستغلًا كل ممكنات تحقيقها لديه من قدرات جسدية أو مالية أو إدارية.. إلخ.

إن السعادة بهذا المعنى تتوفر لدى كل الناس القادرين على أن يظلوا مبتسمين للحياة رغم كل ما يمكن أن يمروا به من عقبات أو منغصات قد تنقص هذا الشعور الرائع بالسعادة.

وفي ضوء هذا التوصيف البسيط للمرء السعيد يمكن للقارئ أن يتساءل: وماذا عن مسببات التعاسة والألم؟! وهل يمكن لأي شخص أن يظل يشعر بالسعادة وهذه المسببات للتعاسة تنغص عليه حياته وتقهره وتهزم شعوره بهذه السعادة الرائقة؟!

منغصات السعادة:

ولهذا السائل أقول إن مسببات الحزن والتعاسة في حياتنا كثيرة ومتفاوتة من عصرٍ لآخر ومن انتماءٍ لطبقة معينة أو أخرى. ولكن إذا ما واجهها المرء ببساطة وبدون قلق ربما ينجح في التغلب عليها ويظل شعوره بالسعادة ثابتًا لا يتململ ولا ينقص!! وهاكم بعض الأمثلة والتفاصيل حول مسببات الألم والحزن والتعاسة!!

1) الفقر:

لعل معظم مَن يقيمون السعادة الإنسانية يتصورون – ومعهم الحق ظاهريًّا– أن الفقر هو أعظم مسببات الحزن والتعاسة؛ إذ حينما لا يستطيع المرء تلبية متطلبات حياته الأساسية ولا يملك المال الذي ييسر له تحقيق هذه المتطلبات يكون في غاية الألم والتعاسة!

ولكن السؤال هو عمَّن يتحدث هنا المتحدثون! إن الفقر مسألة نسبية، فقد يمتلك المرء الملايين من الأموال ويشعر بالفقر إزاء مَن يمتلكون الأكثر منه! وقد لا يمتلك أحدهم إلا بضعة جنيهات ولا يشعر بالفقر إزاء أحد! فهذا الذي يمتلك الملايين يساوره القلق من فقدانها بينما لا يشعر مَن يمتلك الجنيهات القليلة بذلك القلق! ولتنظر معي إلى حارس العمارة الفقير الذي يحيا على الكفاف وهو مهدد بالطرد من وظيفته في أي وقت من هؤلاء السكان مالكي العمارة. ومع ذلك فهو يبتسم في وجه الجميع، قانعًا بما يحصله منهم ويدبر أمور حياته وفق ذلك الدخل القليل. وهو لا يفقد ابتسامته أيًّا كانت الظروف، بل يمضي من عملٍ إلى آخر مؤكدًا على ما يؤمن به: «الأرزاق بيد الله» .. «ما حدش بيموت من الجوع».

انظر إلى ذلك العامل البسيط الذي ما أن يجد عملًا بسيطًا يدر عليه ما يشتري به حاجات أولاده الأساسية حتى تجده يمشي في الشارع منتشيًا يسرع الخطى إلى بيته وأسرته الصغيرة سعيدًا بما حصله، قائلًا: «اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب» .. «ربنا لا ينسى أحدًا».

إن هذه الحياة البسيطة لأناس يرضون بقضاء الله وقدره ويثقون في أن الله معهم في «أولاهم وأخراهم»، إنما هي حياة سعادتها في بساطتها، ليس فيها

ذلـك التنافس القاتل في عالم الأغنياء، وليس فيها الحسـد والكراهية لبعضهم البعـض!! إنهـا حيـاة يزهد فيها المـرء بما في أيـدي الآخرين فلا يشـعر بغيرةٍ ولا بحسـد. فيها يحمد المـرء الله على «الصحة والسـتر». إن مثل هذه الحياة البسـيطة قد يشـعر فيها المرء بالسعادة من أبسط الأشـياء، من نظرة ود ينظرها إليه الآخرون، من كلمة شكر يوجهونها له!

إن ثمة بحوثًا عديدة أُجريت على ذلك الذي أسميه الربط الخاطئ بين ثراء أو غنى الفرد وسعادته، ورأى بعضهم بعد تثبتهم من مصداقية المقاييس ضرورة اسـتخدام المقاييـس الذاتيـة على نطاق واسـع ولأهـداف متعـددة، واقترحوا استبدال المقاييس الاقتصادية للرفاهية بالمقاييس الذاتية للرفاهية الاجتماعية، مثل مقاييس الدخل القومي ونمو الإنتاج المحلي وفائض الاستهلاك من أجل تقييم السياسـات العامة أو تكملة هذه المقاييس الاقتصادية بالمقاييس الذاتية. وقـد اعتمـدوا في ذلك على ما حـدث في تلك الدولة الصغيـرة دولة «بيوتان» التي تقع في جنوب آسيا في الطرف الشرقي من جبال الهملايا كنموذج للأخذ بالمقاييس الذاتية، وقد عرضت جريدة نيويورك تايمز عام 2005م لهذا النموذج مشـيدة بملك بيوتان الذي اعتبر أن مهمته الأولى لا تتمثل في تحقيق النمو في الناتج المحلي وإنما في تحقيق النمو في السعادة القومية.

ولعـل ذلك يـدل على أن السـعادة لا يقلل منهـا الفقر، بل قد يشـعر الفقير بالسـعادة حينما يستغني عن كل ما هو ضروري لدى أبناء هذا الزمان، ويفضل عليـه ما هو ضروري للحياة اليوميـة، ومع هذا القليل الضروري تكمن الكفاية والرضـا وبهما تكون السـعادة الحقيقية للمرء الذي يقرن السـعاة بمجرد دوام الحياة واحتفاظه بالصحة الجسدية فيها.

وقد صدق قول القائل إنه «لا يعد الأغنياء أناسًا سعداء، وعلى الرغم من قناعاتهم بأنهم سعداء من لحظة الميلاد وحتى لحظة الوفاة فإنهم في الحقيقة ليسوا سعداء». فهذا هو بالضبط ما نعنيه حينما نقول لا يوجد ارتباط حقيقي بين الغنى وبين السعادة، لأن الثراء الحقيقي ليس فيما يملكه المرء من ثروة مادية، بل فيما يملكه من سكينة ورضا داخليين.

2) **المرض:**

يعده الكثيرون المنغص الأكبر للسعادة، حيث لا سعادة مع المرض، ولا شعور بالفرح مع المرض .. فكيف يشعر المرء بالسعادة وهو لا يستطيع بجسده المنهك المعتل أن يعيشها؟!

والحقيقة أن هؤلاء تناسوا مرة أخرى أن السعادة ليست فعلًا من أفعال الجسد، بل هي في المقام الأول فعل من أفعال النفس، ولو أن المرء امتلك إرادة الحياة السعيدة لأدرك أنه لا يستطيع أي مرض مهما كان ولا أي إيذاء جسدي مهما كبر أن يؤثر على شعوره بالسعادة والصفاء الداخليين. انظر إلى ذلك الفيلسوف الروماني إبكتيتوس قليل الحيلة نحيل الجسد وهو يخضع لعذاب سيده، وذلك السيد يلوي ساقه حتى يكاد يكسرها وهذا الرواقي العبد يبتسم في وجهه قائلًا: تمهل يا سيدي إنك ستكسر ساقي. وبالطبع فإن السيد يزيد من إصراره على أن يرى هذا العبد متألمًا حزينًا فأخذ يلوي الساق أكثر حتى كسرت. فما زاد إبكتيتوس إلا أن قال له: ألم أقل لك يا سيدي إنك ستكسر ساقي؟! فتعجب هذا السيد لقوة احتمال هذا العبد وكيف أنه لم يواجهه بالصراخ والعويل بل واجهه بابتسامة لم تفارق وجهه. فكان الجزاء أن أطلق هذا السيد صراح هذا الرقيق الذي أصبح فيما بعد زعيمًا للمدرسة الرواقية التي كان يرى أتباعها أن السعادة فعل من أفعال النفس التي لا يستطيع

أحـد أن يتحكـم فيها ولا تسـتطيع أي ظـروف خارجية أن تؤثر فيهـا طالما أن المرء يمتلك نفسًا مطمئنة زاهدة في مطالب الحياة الدنيوية.

وانظـر معي إلى أولئك المسـيحيين الأوائل الذين تأثـروا بهؤلاء الرواقيين وتحملـوا أشـد صنوف العـذاب وهـم واثقون مـن أنهم هم الأسـعد والأحق بالحيـاة من أولئك الذين يعذبونهم، لقد كانوا واثقين من صدق عقيدتهم ومن أن الثبـات على العقيدة هو ما يحقق لهم السـعادة القصوى في الدارين الأولى والآخرة.

ونفس الشيء نراه لدى المسلمين الأوائل الذين عذبوا وظلوا على عقيدتهم الثابتـة. فها هو بلال بن رباح يقول: «أحدٌ أحد» وهؤلاء الكفار يتصورون أنهم يتلـذذون بتعذيبـه واضعيـن جسـده العاري في الشـمس المحرقـة تحت تلك الحجـارة الملتهبة. إنـه يعيش رغم العذاب سـعادة اليقين وهم يعيشـون رغم قدرتهـم علـى تعذيبه حياة اللا يقيـن والألم من أنهم لم يسـتطيعوا رغم كل ما يفعلون التأثير على نفسية هذا العبد الصابئ من وجهة نظرهم!

إن المـرض والتعذيـب يمكن للمرء أن يتحملهما صابـرًا إذا ما امتلك تلك النفس الراضية المطمئنة التي لا تخشى شيئًا، تلك النفس القادرة على أن ترى السـعادة في الطمأنينة الداخلية بأن كل مـا يجري للمرء في هذه الحياة إنما هو قدر مقدر ينبغي التوافق معه حتى يرفع عنه أو يموت دون أن يشعر بألم المرض أو ألم التعذيب وقد نال من صموده أو قلل من قدرته على المواجهة! إن مرض الجسـم وآلامـه لا يعيق المرء عـن أن يطلق العنان لخيالاتـه ولقدراته العقلية؛ فكـم من مؤلفات كتبهـا مؤلفوها تحت وطأة المرض وتحت سـياط التعذيب فحققوا بذلك سعادتهم في هذه الحياة وكتب لهم بها الخلود!

3) السجن وسلب حرية الحركة في الحياة:

لا شك أن سعادة الإنسان قرينة شعوره بالحرية وعلى رأسها حرية الحركة في الحياة وحرية التصرف والتنقل دون قيود، ولكن هل معنى ذلك أن السجين لا يشعر بالحرية؟!

الحقيقة أن السجين قد يشعر في أحيان كثيرة أنه هو الحر وأن سجانه هو الأسير وهو المسجون! إن القيود الظاهرة التي قيدت بها حركة المسجون تبقى قيودًا ظاهرية سينجح يومًا في فكها والخروج من أسرها بينما تظل قيود ذلك السجان المأمور من رؤسائه والخاضع للأوامر العليا باقية ما بقيت حياته!

إن سجين الرأي مثلًا عادة ما يشعر بأنه الحر وأن سجانه هو السجين حقًّا! إن مثل هذا السجين الذي أحاطته أسوار السجن يمكنه أن يشعر بالحرية حينما يمسك قلمه ليسجل به تجربته في السجن وحينما يؤكد فيما يكتب على إيمانه بتلك الأفكار التي عارضها المعارضون وسجنه على أثرها أصحاب السلطة والقرار؛ فأيهما هو الحر حقًّا صاحب الرأي الحر أم صاحب السلطة الذي سجن نفسه بنفسه حينما رفض سماع الرأي الآخر وضاق عقله عن أن يدرك أن ثمة وجهًا آخر على الأقل للحقيقة غير ذلك الوجه الذي سجن نفسه فيه؟!

إن الشعور بالسعادة والحرية قد يشعر بهما ذلك المرء السجين أكثر من شعور سجانه بهما، فالأول يشعر أنه يؤدي واجبه إزاء الدفاع عن حقوقه وحقوق الآخرين بينما سجانه لا شك يشعر بأن هذا الأفق المفتوح للحرية يخنقه!

إن تقييد حرية الجسم في الحركة والانتقال من مكان لآخر لا شك هو أمر مؤذٍ ويسبب الضيق، لكن هذا الإيذاء وذلك الضيق يتضاءل لدرجة العدم إذا ما شعر المرء الذي قيدت حركته الجسمية بأن هذا التقييد لا يستطيع التأثير على

حرية الفكر التي يمتلكها، فقيود الجسد لا تقف حائلًا دون حرية الخيال وحرية التفكير وحرية التعبير التي تعتبر في نظر صاحب الرأي الحر هي الأهم.

وعمومًا فإن الشعور بالحرية إنما يتسع حينما تكون هذه الحرية مرتبطة بالتغلب على أحد التحديات والضروريات. فكم كان طه حسين سعيدًا وهو يواجه بشجاعة يُحسد عليها تحدي ظروفه المادية فضلًا عن تحدي إعاقته البصرية، وهكذا شعر بالسعادة كل مَن واجه تحديات مماثلة. إن كل تحدٍّ يتغلب عليه المرء أيًّا كان إنما يُعد أساسًا من أسس السعادة والشعور المتسع بالحرية. إن التغلب على التحديات والظروف الصعبة هو غاية يسعى إليها الإنسان الذي يطمح إلى أن يحيا حياة السعادة. إذ كيف يشعر المرء بالسعادة وهو لا يتغلب على نقائضها ويهزمها. إن الشعور الأقوى بالسعادة إنما يكمن في هذه المواجهة لتحديات الفقر والمرض والسجن.. إلخ.

4) **الحسد والحقد:**

لعل أهم منغصات السعادة يكمن في هذا الحسد الذي نجده مستشريًا بين أفراد يفترض أن كلًّا منهم له حظه من السعادة التي ينبغي أن يرضى بها.

لكن الواقع أننا نجد أشخاصًا لا يقنعون بما في أيديهم ولا يرضون بما قسم الله لهم من مكانة ورزق، ودائمًا ما ينظرون إلى ما في أيدي الغير ويتمنون أن تزول عنهم تلك النعم لتؤول إليهم!

إن ذلك الشخص الحاسد إنما يخسر مرتين؛ ففي عدم رضائه بما في يده خسران للشعور بالسعادة والاستمتاع بما يملك، وفي ذات الوقت يخسر بالنظر إلى ما في يد الغير بحسرته على أنه لا يمتلك هذه السيارة أو هذا المنزل الذي يمتلكه الآخر. فهو إذن يتألم مرتين؛ مرة حينما ينسى الاستمتاع بما لديه،

ومرة حينما يتصور أنه بالألم والحسرة التي يشعر بها إزاء ما يملكه غيره يمكنه أن يسلب الآخرين ما يمتلكون.

والغريب أن الحسد ليس مقصورًا على فئة دون أخرى؛ فالفقراء يحسدون الأغنياء كما يحسد الأغنياء الفقراء! فإن كان الفقير يحسد ويتحسر على أنه لا يمتلك ما يمتلكه ذلك الشخص الثري من أموال وعقارات وسيارات وخلافه؛ فإن الغني ربما يحسد ذلك الفقير على بساطة حياته واستقراره وعلى أولئك الأطفال الذين يلعبون حوله. إن ذلك «البواب» الذي يجلس أمام تلك العمارة ذات صباح مستمتعًا بشرب كوب من الشاي الساخن بجوار زوجته وأولاده وهم يشعرون بالرضا وينعمون بابتسامة صافية قد يكون مثار حسد من ذلك الثري المتعجرف الذي وهو ينظر إليهم بازدراء ويثيرهم بأوامره وكثرة طلباته إنما يريد أن تتحول ابتسامة السعادة والرضا التي تبدو على وجوههم إلى حسرة وألم على وضعهم المادي المزري!

ولعل ذلك مما يكشف لنا بحق أن السعادة ليست حالة يعيشها الأغنياء دون الفقراء بل هي حالة قدرها خالق البشر لكل البشر، إذا تخلصوا من المشاعر السلبية المنغصة لنوع السعادة التي كفلها لهم!

إن الوضع الاجتماعي المميز قد يكون سببًا من أسباب السعادة لكنه ليس السبب الوحيد، وربما يكون سببًا من أسباب التعاسة والألم إذا اختلط لدى صاحبه بمشاعر الغضب والحسد مما يجده من صحة وابتسامة على شفاه الفقراء.

5) **القلق والملل:**

كثيرًا ما يفسد الشعور بالسعادة شدة الاستثارة والقلق الذي يعانيه الإنسان إزاء خوفه من شيءٍ ما أو ترقبه لحدث مزعج بالنسبة له. إن هذا الخوف وذلك

الترقب اللذين يثيران قلق الإنسان يجعلانه لا يشعر بالطمأنينة والسعادة في حياته فينقلب ليله نهارًا ونهاره ليلًا وكلاهما يصبح ثقيلًا عليه، إذ يفتقد حينئذٍ لأدنى شعور بالسعادة. وبالطبع فلا شك أن الخوف والقلق مشاعر مثيرة ومفسدة لشعور الإنسان - أي إنسان - بالسعادة. لكن التعميم هنا يصبح مرفوضًا وغير دقيق حينما يدقق الإنسان ويعطي لنفسه مساحة عقلية للتأمل والتفكير فيما يثير قلقه ومخاوفه، فإذا ما تساءل المرء مثلًا: ما أسوأ الاحتمالات التي ستترتب على هذا الحدث المقلق أو المخيف؟! هل ستتغير أحداث الكون نتيجة لذلك أم هل سيترتب على ذلك ضياع جزء من الثروة أو انخفاض المكانة الاجتماعية أو فقدان تلك الوظيفة المرموقة أو ما شابه هذا وذاك!

إنه بلا شك لن يكون الاحتمال الأول، لأن الفرد منَّا إذا نظر إلى مكانته ووضعه في الوجود سيكتشف أن أي حدث فردي يحدث له مهما كانت درجة عظمه وقوته لن يؤثر في شيء خارجي ولن يوقف حركة الحياة البشرية والكونية من حوله، بل قد لا يحس به أحد من الآخرين أصلًا باستثناء الدائرة الصغيرة المحيطة به من أفراد الأسرة أو الأصدقاء.

ومن ثم فعلى المرء أن يخفف من قلقه ويقلل من مخاوفه إزاء ذلك الحدث أيًّا كانت درجة تأثيره، فالأهم من كل ما سبق من احتمالات الخسارة والفقدان، هو أن يظل المرء حيًّا متمتعًا بصحته وقادرًا على أن يبدأ من جديد! إن أي خسارة أو أي فقدان يمكن للمرء أن يتغلب عليه لا ينبغي أن يكون منغصًا للسعادة أو للشعور بأهمية أن يحيا المرء مبتسمًا راضيًا بكل ما يمر به من صنوف القدر وأحداثه.

ولا شك أن لحظات التأمل والتدقيق هذه إنما فيها العلاج الشافي من كل عوامل القلق والخوف، لأن سعادة الفرد في النهاية مردها إلى مشاعره الداخلية

وليست مأخوذة إلا في أضيق الأحوال من الظروف الخارجية، فضياع مصنع أو فقدان بعض المال، أو حتى الفصل من وظيفة ما، إنما قد يكون – رغم كل ما فيها وما يصاحبها من مشاعر سلبية – إيذانًا ببداية حياة جديدة بمسار جديد طالما أن الفرد لم ينكسر أمام تلك الظروف التي مر بها!

وعلى الجانب الآخر فقد يشعر المرء بالتعاسة من تلك الحياة الرتيبة التي يجد نفسه فيها على غير رغبة منه، فبعض البشر لا يشعرون بالسعادة إلا في حياة الصخب والإثارة، ولا يجدون متعة لحياتهم إلا وسط هذا الصخب وحياة السهر وصحبة الأصدقاء والحقيقة أن غياب هذه المظاهر من حياتهم رغم أنه قد يسبب لهم ذلك الملل والشعور بالرتابة والجمود، فإنه يمكن إذا ما نظروا إليه من منظور آخر أن يكون مجرد فترة فيها يهدأ المحارب ويستجمع قدراته ليبدأ من جديد.

إن الحياة الراتبة إنما هي حياة يغلب فيها النظام على الفوضى، والهدوء على الصخب. وربما يكون في هذا وذاك نوع من السعادة التي يفتقدها أولئك الذين يعيشون في استثارة دائمة ربما تقضي على حياتهم ذاتها، إذ تورثهم هذه النوعية من الحياة المرض وفقدان المعنى الحقيقي للحياة.

إن الحياة المنظمة الرتيبة ليست منقصة للسعادة، بل قد تكون فيها السعادة ذاتها لأنها في الغالب حياة يملؤها صاحبها بالتأمل والعمل الصامت الدؤوب. فتلك كانت حياة الفيلسوف الألماني الشهير كانط الذي كان يحيا حياة شديدة النظام والرتابة لدرجة أنهم كانوا يضبطون ساعاتهم عليه حينما يخرج للنزهة والتريض كل يوم!

وتلك كانت حياة معظم العلماء الذين وهبوا حياتهم للكشف العلمي، إذ يكون عليهم دائمًا أن ينفقوا معظم وقتهم في البحث والتحري ومتابعة الظواهر

وإجـراء التجـارب والصبر على النتائج حتى يمكنهم فـي النهاية أن يصلوا إلى نتيجـة محـددة لهـذا البحث العلمـي المعني. وقد تكـون النتيجة أن يكتشـفوا زيـف الفرض الذي أوقفـوا حياتهم على إثباته. لكن هذا أبـدًا لا يثبط من همة العالم العظيم إذ يقول عقب ذلك متغلبًا على هذه المشـاعر السـلبية: ها أنا قد تأكدت من أن هذا الفرض ليس صحيحًا وعليَّ من الآن البحث عن فرض، بل عـن فـروض أخرى. وتمضي حياة العالم على هـذا النحو الذي قد تظنها رتيبة مملـة، ولكنها – حين التأمل – هي الحياة السـعيدة الحقة التي تليق بالإنسـان الذي خُلق ليسـعى إلى فهم هذا العالـم وظواهره المختلفة، ولم يخلق لمجرد الاستمتاع بلذات السهر والإنفاق ومرافقة الإناث.. إلخ.

الفصل الثاني

السعادة الإيجابية

قلنا فيما سبق إن السعادة تكمن في الرضا بالواقع والتكيف مع ممكناته، لكن هذا لا يعني بحال الخضوع السلبي، بل على العكس من ذلك فأهم شروط السعادة هي الإيجابية في السلوك.

إن الفعل الإيجابي للمرء في الحياة هو ما يشعره حقًّا بالسعادة. ففي أى موقع أو في أي وظيفة وجد الفرد فإيجابيته في الفعل هي ما به تتحقق سعادته. وأيًّا كانت الطبقة التي ينتمي إليها والبيئة التي نشأ فيها، فإن إيجابيته هي ما تتحقق بها سعادته، والمشاركة مع الآخرين فيما يفعلون هو دليله الدائم للسعادة، فانكفاء الفرد على ذاته هو ما يورثه الإحباط والملل، بينما الخروج من الذات ولقاء الآخرين قولًا وفعلًا هو ما يكسبه الشعور بالإيجابية في الحياة.

ومن هنا قيل على سبيل المثال إن الديمقراطية هي أفضل أنواع الحكومات لدى أنصارها؛ نظرًا لأنهم يرون فيها تحقق المشاركة الإيجابية للأفراد، فهم يشكلون أفراد أو أعضاء المجتمع السياسي، وهم – حسب قدراتهم ومواهبهم– مَن يتداولون فيما بينهم الوظائف السياسية. وهم مَن بيدهم اختيار مَن يحكمهم، وهم مَن بيدهم تغيير حكومتهم وحكّامهم. ومن ثم يشعرون بسعادة صنع القرار السياسي والمشاركة الفعالة في كل ما يهمهم كأفراد وكجماعة سياسية.

ومن هنا قيل أيضًا إن الليبرالية الاقتصادية هي أفضل النظم الاقتصادية في نظر المؤمنين بها؛ نظرًا لأنها تتيح الفرصة أمام الأفراد ليضعوا حسب قدراتهم وإمكانياتهم وإبداعاتهم خطط نشاطهم الاقتصادي، وكلما نجحوا في الوصول إلى الأفكار المبدعة التي تحقق لهم الربح ولمجتمعهم الاكتفاء الذاتي من مختلف صور الإنتاج الزراعي والصناعي، عاشوا سعداء في مجتمع سعيد.

وإذا كان المشاركون في العمل يتفاوتون في القدرات فهم يتفاوتون أيضًا في المراتب والمردود الاقتصادي، وإذا أحس البعض بالظلم نتيجة حدوث الفروق الاقتصادية بين أصحاب الأعمال والعاملين، فإن من الممكن التغلب على الشعور بالظلم في ظل التفاوت ببعض التشريعات الاشتراكية التي تحقق العدالة الاجتماعية وترفع الظلم عمَّن يشعرون به من العاملين.

وهكذا فالمشاركة الفاعلة سياسيًّا واقتصاديًّا هي سمة المجتمعات الليبرالية الديمقراطية، وهي سمة من سمات مجتمع الكفاية والتقدم؛ حيث يشعر الفرد بقيمته الذاتية، ومن ثم ينعكس ذلك على شعوره بالسعادة والإيجابية في الحياة.

والحقيقة أن هذا النوع من السعادة الإيجابية ليس فقط قرين النظم الديمقراطية في الحكم، لأن ثمة صورًا عديدة للمشاركة الإيجابية في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكل مجتمع سياسي ناتج بيئة سياسية معينة وشعور الفرد إزاء هذه البيئة التي ولد فيها هو ما يمنحه الإيجابية فيها وليس المعيار هنا متوقفًا على صورة معينة من صور الحكم. ولنضرب مثلًا بالمجتمعات البدوية القبلية التي عادة ما يخضع فيها الجميع لزعيم القبيلة التي ربما يكون معيار الزعامة فيها كبر السن أو عظم المكانة الاجتماعية أو

الأصل العريق.. إلخ. إن خضوع الفرد في ظل هذا النظام القبلي لهذا الزعيم أو لهذا النظام القبلي لا يعني فقدانه فرديته في الفعل أو بمعنى آخر لا يقف ذلك عائقًا أمام إظهار قدراته الفردية، بل على العكس إن معيار التميز في القبيلة – بصرف النظر عن زعامتها – إنما يُقاس بمدى تميز أداء الفرد في أي مجال من المجالات، فقد كان تميُّز عنترة بن شداد الذي ولد لامرأة سوداء، أساسه قدراته الفردية والفتوة في الفروسية، وتميز غيره بالمهارة الأدبية في فنون الشعر والألغاز، بينما تميز آخرون بقدراتٍ أخرى.

وكم شاهدت في الريف المصري الذي أنتمي إليه صورًا للمشاركة الإيجابية التي تعود بالسعادة على أفرادها رغم ما يعانون منه من ظروف الفقر والمرض، فهؤلاء العمال » باليومية « الذين يذهبون لجني محصول القطن أو أولئك الذين يخوضون في المياه العكرة المليئة بالطين لشتل أو لتنقية حقول الأرز فيتلقفهم البعوض المؤذي قرصًا وإيذاءً إنما يعملون ولديهم إحساس بالسعادة للمشاركة في تحمل تبعات العمل، فهم في النهاية سيقومون بتنظيف أنفسهم والحصول آخر اليوم على مقابل عملهم فيذهبون به سعداء إلى أسرهم ناسين معاناتهم طوال اليوم.

إن مَن يسمع أهازيج هؤلاء العمال وهم يعملون في أقسى الظروف إنما يدرك أن السعادة الحقة ليست أبدًا قرينة الراحة والكسل، بل هي قرينة العمل الجماعي المنتج.

إن العمل إذن هو الذي يشكل العنصر الأساسي في السعادة الإيجابية، بينما البطالة هي قرين التعاسة والإحباط بصرف النظر هل هذه البطالة نتيجة أن صاحبها من الأثرياء الذين يتلذذون – إلى حين – من الركون إلى الراحة

والجلوس أمام التلفزيون والاستمتاع بملذات المأكل والمشرب .. إلخ، أم من الفقراء الذين لم يجدوا بعد فرصة عمل أو فصلوا من عملهم؟! إن البطالة في كل الأحوال سيئة وإن تلذذ الفرد في ظلها تلذذًا وقتيًا سرعان ما يتحول إلى ملل وإلى كآبة، بينما العمل أيًا كانت صورته وأيًا كان مستوى العامل إنما هو قرين السعادة، لأنه ببساطة يحقق إنسانية الإنسان، ويثبت فيه الإنسان الفرد أنه قادر على إفادة نفسه ومجتمعه.

إن «اليد البطالة نجسة»، هكذا يقول المثل الشعبي المصري، بينما اليد العاملة يد طاهرة قادرة على الإنجاز، وقادرة على إسعاد صاحبها ومحيطه الأسري والاجتماعي.

وتتعدد صور السعادة الإيجابية بتعدد المهن، وهي قرينة قدرة الفرد في هذا العمل أو ذاك على أداء وظيفته بإتقان؛ فكما أنك تجد أن الحصان الذي يحسن العدو ويتفوق على أقرانه يكون مزهوًا بنفسه فخورًا بإنجازه، كذلك العامل في مصنعه، والفلاح في حقله، والعالم في معمله، والمدرس في حصته، والأستاذ الجامعي في محاضرته .. إن كلًا منهم يشعر بالسعادة حال أدائه لوظيفته على الوجه الأكمل دون تعقيد ودون إهمال لواجباته.

ولا يظن أحد أن ذلك الموظف الذي يهمل في عمله ويقول «على أد فلوسهم»، أو الذي يقبل رشوة من الآخرين، أو ذلك المدرس الذي يهمل دروسه في الفصل الدراسي ويذهب لإعطاء تلاميذه دروسًا خصوصية منزلية، أو غير هذا وذاك يشعرون بالسعادة الحقيقية، فهم على العكس من ذلك يشعرون بأنهم مقصرون في أداء عملهم ودائمًا ما تكون سعادتهم بما يجمعون من أموال سعادة منقوصة. إن هذه الوسائل غير المشروعة التي جمعوا منها

أموالهم إنما هي أسوأ وسيلة لجلب غاية غايات حياة الإنسان وهي السعادة. إذ إن الوسيلة غير المشروعة لا تحقق إلا سعادة يشوبها الضيق والألم، سعادة منقوصة يشعر معها المرء بأنه إنما يبني سعادته الوهمية على أنقاض فضائل كان ينبغي أن يتمتع بها.

ولك أن تقيس سعادة هؤلاء المنقوصة بسعادة ذلك الموظف الذي قاوم رغبات نفسه الدنيئة ورفض الرشوة، وسعادة ذلك المدرس الذي رفض - رغم حاجته - الذهاب إلى تلاميذه في منازلهم وأدى واجبه كاملًا في فصله الدراسي. إن السعادة المعنوية التي يجنيها هؤلاء إنما هي سعادة الفعل الإيجابي، سعادة الإنسان الذي يمارس مهنته طبقًا لمبدأ الواجب وليس طبقًا لما يجنيه منها من منافع مادية. إن الزهو والسعادة التي يشعر بها المرء نتيجة أداء واجبه الوظيفي بإتقان تعوضه عن أي منافع مادية يمكن أن يجنيها من ممارسة مهنته بهذا الشكل الوضيع الدنيء.

إن سعادة العالم الذي يجلس في معمله ليل نهار سعيًا وراء اكتشاف علمي مثير لا تدانيها أي سعادة أخرى لديه، ففي الوقت الذي يصل فيه إلى هذا الكشف العلمي المثير إنما يحمل في طياته نتيجة جهده وعمله المتقن النافع ومن ثم يحصل من خلال ذلك على السعادة الكاملة بصرف النظر عن الفوائد المادية التي سيحصل عليها نتيجة هذا الكشف العلمي الذي قد يغير مسار العلم في تخصصه، والذي قد يترتب عليه كم هائل من السعادة لدى البشرية جمعاء. وصدق أفلاطون وأرسطو قديمًا حينما أكدا على أن لذة «التأمل» لا تدانيها لذة، وأن السعادة التي يجنيها الفيلسوف من تأملاته أكبر بكثير من تلك اللذات الحسية التي يجري وراءها عامة الناس؛ إذ سرعان ما تنقلب

اللذة الحسية إلى ألم فضلًا عن أنها دائمًا ما يخالطها الألم، بينما لذة المعرفة والوصول إلى الحقيقة هي ما يحقق السعادة الحقيقية للفيلسوف.

إن السعادة التي يجنيها الفيلسوف أو العالم من اكتشافاته الفلسفية والعلمية لا تدانيها سعادة، فقد رفض أينشتاين رئاسة دولة إسرائيل، وهكذا فعل كل العلماء والفلاسفة الأفذاذ من قبل. فهم لا ينبهرون أمام أصحاب النفوذ والسلطة السياسية، بل يشعرون دائمًا بأنهم أقوى من ذلك، وبأنهم هم الخالدون بينما أصحاب السلطات السياسية والثروة المادية سعادتهم وقتية وزائلة. لقد قيل إن العالم المصري الدكتور أحمد زويل الحاصل على جائزة نوبل كان يسعى إلى رئاسة مصر، لكن الحقيقة التي قالها زويل نفسه «أنه يتمنى أن يموت وهو عالم» وقد ظل إلى آخر لحظات حياته يحلم ويجد سعادته داخل معمله يواصل تجاربه ويراقب أداء تلاميذه .

انظر إلى ذلك الفيلسوف الكلبي ديوجين حينما أتى إليه الإسكندر الأكبر وهو مَن هو في الزمن القديم قائلًا: ألك حاجة يا ديوجين .. أنا الإسكندر. فلم يزد ديوجين وهو لا يزال – رغم وقوف الإسكندر على رأسه – مستلقيًا على ظهره يستمتع بضوء الشمس إلا أن قال له: ابتعد يا هذا لقد حجبت عني ضوء الشمس!!

حينئذٍ أدرك الإسكندر ذلك القائد العسكري الفذ أن سعادة «التأمل» أهم وأروع من السعادة التي يجنيها وهو المؤسس والحاكم حينئذٍ لأكبر إمبراطورية في التاريخ، وقد عبر عن ذلك قائلًا: لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجين!!

وبالطبع فليس فيما نقول عن السعادة الإيجابية هنا أي تقليل من شأن وظيفة الحاكم، ومن يشاركونه في السلطة السياسية، لأن الحقيقة أن هذه

وظيفة رائدة ومهمة في أي دولة وفي ظل أي نظام سياسي، فالحاكم العادل هو أحد المُثل العليا للسعادة الإيجابية، فهو ذلك الحاكم الذي يحكم ليس لتحقيق سعادته الشخصية، بل لتحقيق السعادة والرفاهية لشعبه. وحينما نادى أفلاطون بأن يكون حاكم دولة المدينة المثالية الفاضلة هو الفيلسوف أو الحكيم، فهو لم يقصد إلا هذا المعنى؛ فالحاكم الفيلسوف هو ذلك الحاكم الذي يحكم بمقتضى تحقيق العدالة بين مواطني دولته، ساعيًا إلى رفاهيتهم جميعًا وتحقيق الخير الأقصى للدولة، هو ذلك الحاكم الذي لا يبحث عن تحقيق مجد شخصي بتوسيع رقعة ملكه أو ما شابه، بل هو الحاكم الزاهد في مطالب الحياة الحسية، الساعي دومًا إلى تحقيق مثال «العدالة» في الدولة.

وكم كان الشيخ محمد بن راشد حاكم دبي ورئيس مجلس وزراء دولة الإمارات العربية المتحدة رائعًا فيما كتب في كتابه «تأملات في السعادة الإيجابية» حيث قال: حينما تحملت مسئولية الحكم تساءلت ما هو دوري وماذا ينبغي أن أفعل؟!

ولم يجد إجابة إلا أن مهمته في الحكم هي بكل بساطة » إسعاد مواطني الدولة والمقيمين على أراضيها »، فالسعي إلى إسعاد مواطني دولته هي فقط وظيفة الحاكم العادل الذي يؤدي وظيفته طبقًا لمبدأ الواجب، وإتقان العمل. إن أداء مهمة الحاكم على هذا النحو هو ما يحقق السعادة الحقيقية لصاحب السلطة السياسية، لأنه وهو يجد ويعمل على تحقيق السعادة للجميع يحقق في ذات الوقت قمة السعادة لنفسه.

إن التشارك الإيجابي في الحياة السعيدة هو المعيار الحقيقي لنجاح أي مجتمع سياسي واجتماعي وإنساني.

لقد قال الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل بحق في كتابه «انتصار السعادة» إن سر السعادة هو الآتي: «اجعل اهتماماتك واسعة قدر الإمكان واجعل ردود أفعالك ودودة لا عدائية بأقصى درجة ممكنة تجاه الأشياء والأشخاص الذين يهمونك». وتلك هي بالضبط الروشتة الشافية لأي حاكم أو لأي سلطة سياسية تريد أن تحقق السعادة لمواطنيها. وهكذا فعل دائمًا الحكام العظام عبر التاريخ وكان الخلفاء الراشدون في الدولة الإسلامية خير مثال على ذلك رغم ما عاناه بعضهم على أيدي المتطرفين من رعيتهم .

الفصل الثالث

السعادة في الحب وإدراك الجمال الحقيقي

ربما يكون الشعور بالسعادة الحقيقية أفضل ما يكون لدى المرء المحب حينما يلتقي بمحبوبه، فهو حينئذٍ يشعر بأنه أشبه بطائر يحلق بجناحيه في ذلك الفضاء المتسع فيرى النور في حال الظلام، ويرى الصحة في حال المرض، ويرى البهجة في حال الألم!! إن هذا الشعور بالسعادة في لحظات الحب الخالص تجدها لدى أعلام الصوفية حينما يخاطبون محبوبتهم المتمثلة في «الذات الإلهية». إن قمة السعادة لدى الصوفية إنما تتمثل في هذا اللقاء أو التلاقي المنشود بين الذات الفردية والذات الإلهية. أو على الأقل تتمثل في الشعور بأن تجلي الذات الإلهية للذات الإنسانية قد أزال الحُجب بينهما.

إن هذا الشعور الطاغي بالسعادة لدى الصوفية لا يختلف كثيرًا عن الشعور بالسعادة بين المحبين من البشر؛ فكلاهما يحس أن اللقاء بالآخر المحبوب يعني فناء ذاته في ذات الآخر وكأنهما «روحين حللنا في جسد واحد» أو «جسدان حلت فيهما روحًا واحدة».

وفي كل الأحوال فإن الحب يكون مسببًا رئيسيًّا للسعادة، حيث يتشارك المحبان في نفس المشاعر ونفس الأهداف. إن في مشاعر المحب إيجابيات عديدة لعل أكثرها أهمية هو هذا التشارك في الغايات والأهداف، فضلًا عن التوحد في النظرة للأمور من أبسطها إلى أعقدها. ومن ثم فإن أقل شيء يسعد المحبين.

إن الحب يرقى بصاحبه من حب الجمال الحسي فيمن يحب إلى حب الجمال الخلقي، ومنهما إلى حب الجمال في ذاته، فالحب ارتقاء بالقيم وبالذات قيمة الجمال.

انظر إلى ذلك الحوار الممتع بين سقراط وديوتيما حول الحب والجمال فيما كتبه أفلاطون (428-347 ق.م) في محاورة «المأدبة» حيث تقول ديوتيما لسقراط الساعي إلى إدراك أسرار الحب وحقيقة الجمال[1]:

"إن الرجل الذي يرجو أن يتبع الطريق القويم إلى هدفه السامي (تقصد معرفة حقيقة الحب والجمال) عليه أن يأخذ نفسه من الصغر بتأمل الجمال الإنساني وإذا أحسن مرشده إرشاده أحب أولًا فتى جميلًا، ويأتي بعواطف نبيلة بالاتصال به. ثم يدرك أن الجمال المادي في شخص متصل بالجمال المادي في شخص آخر، وإذا كان ينشد الجمال الظاهري فمن العبث ألا يعترف بأن الجمال الذي يتجلى في جميع الأجسام إنما هو جمال واحد وعندئذ يحب الجمال المادي عامة، فيضعف حبه لشخص بعينه لأنه يدرك أن هذه عاطفة أقل أهمية. وقد تجاوزها إلى مرحلة أخرى أو ارتقى إلى مرحلة أخرى، وتأتي المرحلة التي يقدر فيها جمال الروح أكثر من تقديره لجمال الجسد، فلو أنه وجد نفسًا نبيلة فاضلة في جسم لا حظ له من جمال لرضي بحبها والإخلاص لها، فيأتي بالأفكار التي من شأنها تهذيب النشأة.

وهو في هذه المرحلة يجد نفسه يتأمل الجمال الذي يتبدى في الأعمال والنظم المختلفة، ويتضح له آخر الأمر أن الجمال فيها مرتبط بعضه ببعض فيظهر عندئذ حقارة الجمال المادي، وضآلة شأنه إذا قورن بالجمال الروحي،

(1) أفلاطون : محاورة المأدبة، الترجمة العربية لوليم الميري، مطبعة الاعتماد بالقاهرة، الطبعة الأولى 1954م.

ومن الأخلاق ينتهي إلى العلوم فيتأمل جمالها، وبذلك يحصر نظره في الجمال بمعناه الواسع؛ فلا تستبعد بعد عاطفة حقيرة لنموذج فردي للجمال سواء كان موضوع حبه فتى، أو رجلًا، أوعملًا من الأعمال، أو نظامًا من الأنظمة وهو إذ يحدق في محيط الجمال الذي اتجه إليه بصره الآن، ثم يأتي بفضل حبه الفياض للحكمة بعواطف وأفكار نبيلة جليلة، وإذا ما قوي بفضل هذه التجربة يرنو ببصره إلى العلم الوحيد وموضوعه الجمال الذي سأحدثك عنه. والآن أعرني سمعك ووعيك كله.

إن الرجل الذي سار هذا الشوط، ووصل إلى هذا المدى في أسرار الحب، واتجه بفكره إلى نماذج الجمال حسب الترتيب الذي ذكرناه، مثل هذا الرجل ينكشف له في آخر الطريق جمال فذ في طبيعته، وهو غاية كل المراحل السابقة يا سقراط، هذا الجمال هو أولًا وقبل كل شيء جمال خالد لا يخضع لكون أو فساد، ولا يجوز عليه نمو أو ذبول، وهو ثانيًا ليس جميلًا في ناحية من نواحيه، قبيحًا من ناحية أخرى، وليس جميلًا في آن وقبيحًا في مكان آخر، ولا يختلف باختلاف الناظرين إليه، ولا باختلاف الجهة التي ينظرون منها، ولا تجد له شبيهًا في جمال وجه أو جمال يدين أو جمال جسم، أو شبيهًا بجمال فكرة أو جمال علم، وليس له شبيهًا في غير ذاته سواء كان كائنًا حيًّا في السماء أو على الأرض أو في أي مكان آخر، بل هو جمال مطلق لا يوجد إلا بذاته، وكل شيء جميل يشارك فيه وإن جاز عليه الكون والفساد والتغيير فلا يجوز عليه شيء من هذا.

عندما يلمح المرء هذا الجمال الأسمى مبتدئًا من العالم الحسي، عندما يلمح هذا الجمال يكون قريبًا من غايته، هذا هو الطريق القويم في الاقتراب من أسرار الحب، والدخول فيها، يبدأ المرء بنماذج الجمال في هذا العالم

يجعلها درجات يرقى بها جاعلًا غايته ذلك الجمال الأسمى المطلق من نموذج للجمال الحسي إلى نموذجين ومن نموذجين إلى الجمال ككل، ومن الجمال الحسي إلى الجمال الخلقي، ومن الجمال الخلقي إلى جمال المعرفة، ومن المعرفة بفروعها المختلفة إلى المعرفة المطلقة التي يكون موضوعها الوحيد الجمال المطلق فيعرف آخر الأمر ماهية الجمال المطلق».

واستطردت المرأة الحكيمة تقول: «في ذلك المكان لا غيره ينبغي للمرء أن ينفق عمره يا سقراط في تأمل الجمال المطلق، وإذا ما أبصره فلا يعنى بذهب أو بثياب فاخرة أو بجمال الغلمان والشبان مع أن النظرة من هؤلاء تسبب لك ولأمثالك نشوة ما دمت تتمتع بصحبتهم دائمًا والنظر إليهم حتى لترضى أن تحيا من غير طعام ولا شراب إذا قدرت على هذا. وبقيت أبدًا معهم تتأمل جمالهم، كم تكون سعادة الرجل الذي يحظى برؤية الجمال المطلق، ويطلع على ماهيته طاهرًا لا يدنسه دنس، ونقيًّا لا تشوبه شائبة، بدلًا من الجمال الذي يشوبه ويدنسه لحم الإنسان وألوانه، وهو كتلة من المادة القذرة الفانية؛ من يصل إلى هنا يستطيع أن يدرك الجمال الإلهي حيث يوجد بمعزل عن كل شيء، وحيدًا فريدًا! أتحسب أن الرجل الذي يتأمل الجمال المطلق ويتحد به، أتحسب أن حياته تدعو إلى الشفقة والرثاء ؟ ألا ترى أنه في ذلك المكان وحده الذي يرى الجمال المطلق بالملكة التي يمكن رؤيته بها؟ ألا ترى أنه يستطيع الإتيان ليس فقط بصور منعكسة للخير بل بالخير الحقيقي، لأنه لا يتصل بظل الحقيقة ولكن بالحقيقة ذاتها ؟ وإذا ما جاء بالخير ورباه أصبح أهلًا لحب الله ويتحقق له الخلود إن كان من الممكن أن يظفر آدمي بالخلود».

انتهى كلام ديوتيما لسقراط عن أسرار الحب والجمال، حيث تعلمنا فيه أن الحب الحقيقي ليس حب الجمال الحسي بل ينبغي الانتقال منه إلى حب

جمال الفضائل الأخلاقية ومنها إلى جمال المعرفة ومنها إلى إدراك الجمال المطلق الذي هو بلا شك الجمال الإلهي.

إن الحب إذن يرتقي بارتقاء إدراكنا لصنوف الجمال، وهكذا أيضًا يرتقي مفهومنا للسعادة من السعادة الحسية التي نجنيها من الاتصال بالأشياء المادية المحسوسة إلى السعادة الحقة التي تجعلنا نرقى لنتصل بأصل الحياة وأصل الجمال، الله.

فيا لها من سعادة تلك التي نشعر فيها بأننا في معية الجمال في ذاته، الكمال في ذاته، الله جل جلاله!

ولنتأمل معي ذلك النص البديع الذي يشرح فيه الفيلسوف المصري السكندري أفلوطين (205-270م) في كتابه القيم «التاسوعات» كيف ينبغي للمرء أن يفهم المعنى الحقيقي للسعادة بداية من إدراكه لمعنى الحياة الطيبة، وأن تلك الحياة الطيبة لا يختص بها الإنسان وحده، بل تملكها الكائنات الحية الأخرى حيث ترتبط لديهم بأداء الوظيفة المنوطة بهم في الحياة، ويرتقي بنا من تلك الحياة الطيبة السعيدة لدى الكائنات الحية إلى الحياة الطيبة السعيدة لدى الإنسان بداية من شعوره باللذة من عمل حواسه ومن ممارسة كل وظيفة تتصل بها إلى الشعور بالسعادة الحقيقية التي تليق بماهية الإنسان، وهي الحياة التي يعيشها وفقًا لمطالب الروح، فالحياة الكاملة حقًّا والتي تليق بالإنسان في نظر أفلوطين هي «الحياة القائمة في تلك الطبيعة الروحانية» للإنسان، وإذا ما وصل الإنسان إلى تلك الحياة الكاملة فلا يمكن أن يعيقه عنها أي شعور بالنقص أو بالمرض أو خلافهما، ففي الاستغناء عن مطالب الجسد تكمن حقًّا - في نظر أفلوطين - سعادة الروح التي لا تدانيها سعادة.

يقول أفلوطين[2]:

1) إذا ما افترضنا أن الحياة الطيبة هي والسعادة أمر واحد، فهل تسلم بحصولها لغير الإنسان بين الأحياء ؟ إذا تم لهذه الأحياء أن يعيشوا بحسب ما فطرت عليه وبدون أن يعترضها في ذلك شيء، فما الذي يمنع من أن يقال إنها في حال الحياة الطيبة ؟ وسواء أجعلنا الحياة الطيبة في رفاة العيش أم في القيام بالوظيفة الخاصة، فالحياة الطيبة حاصلة على كلتا الحالتين للأحياء الأخرى. ذلك لأن رفاة العيش ممكن في كل عمل يلائم الطبيعة؛ فالحيوانات المفطورة على الغناء مثلًا تجد في الإنشاد الذي فطرت عليه ما تجده من نواح أخرى من الرفاهية، فتتم لها بذلك الإنشاد الحياة التي تطيب لها. ثم إننا إذا افترضنا أن السعادة غاية، وهي الحد الأقصى للميل الكامن في الطبيعة، سلمنا بذلك اشتراكًا في السعادة لكل حي أيضًا عند انتهائه إلى الحد الأقصى الذي ببلوغه تسكن الطبيعة في ذلك الحي..

2) .. فالإنسان سعيد إذا حصل على تلك الحياة. وإلا فإن السعادة تقتصر على الآلهة ما دامت تلك الحياة لا تتم إلا لهم، أما الآن وقد أثبتنا السعادة للإنسان أيضًا، فينبغي أن نبحث كيف يتم ذلك ؟ فلنقل إذن إن الحياة الكاملة تحصل في الإنسان ليس فقط عندما تحصل فيه حياة الإحساس، بل أيضًا النطق والروح الحق، وهذا ثابت بأكثر من دليل..

3) وما الحياة السعيدة إلا ما يراد. هذا مع العلم أن المجتهد ليس نفسًا مجتهدة فقط، حتى لا يقام في حدود ذاته لكيانه الجسدي حساب. قد يقال إنه لا مانع من التسليم بأن يعتبر الجسد على ما وصفناه، أعني على أنه جزء من الإنسان، ولكن بقدر ما ترتفع تأثرات الجسد وتنتهي إلى هذا الإنسان..."

(2) أفلوطين: التاسوعات، الترجمة العربية، فريد جبر، مكتبة لبنان، بيروت 1997م.

إن مـا قصـد أفلوطين التأكيد عليـه في هذا النص المطـول الذي اختصرناه هنا هو:

(1) أن السعادة قرينة الحياه للكائن الحي عمومًا.

(2) أن كل كائـن إنمـا يحقق سـعادته الكاملـة بقدر ما كفلت لـه الحياة من وظائف يمكنه القيام بها وكلما أتقن القيام بهذه الوظائف كان شعوره بالسعادة يقترب من الكمال.

(3) أن السـعادة الإنسـانية ليسـت مقصـورة على لذات الجسـد بـل يرتقي شـعور الإنسـان بالسـعادة بقدر ما يرتفع عن تأثير الجسـد والزهـد في مطالبه لصالـح تلبية مطالب الـروح ليحقق ماهيتـه بالاتصال بالعالـم الإلهي وإدراك حقيقة الوجود والجمال.

الفصل الرابع

السعادة الاجتماعية

عـادة ما يبحـث كل امرئ منا عن سـعادته الذاتية ويتصور خطـأ أنها يمكن أن تُحصـل دون علاقـة بالآخرين أو دون اتصال بهـم. وقد ثبت لنا من الفصل السـابق أن السـعادة في الحب تقوم علـى الاتصال بالآخرين بأشـكال وصور مختلفة.

وربما يكون في التسـاؤل المبدئي عن معنى الحياة ذاتها إجابة شـافية لمن يتساءلون عن هل للحياة معنى بدون وجود الآخرين؟!

وفـي اعتقـادي أنـه لا يمكـن أن نتصـور وجود معنـى للحياة بـدون وجود الآخريـن فـي حياتنا الفردية. وقـد صدق ألفريد أدلر حينما أكـد ذلك في كتابه «معنـى الحيـاة"؛ حيث اعتبـر أن ثمة مهامًّا ثلاثـة للحياة تكشـف جميعها عن ضـرورة وحتميـة ارتباط حياة الفـرد بحياة الآخرين في المجتمع البشـري ؛ إذ إن كل البشـر يعيشـون كما يقول تحت ثلاثة ظروف اضطرارية رئيسـية، وهذه الظروف الاضطرارية الثلاثة هي ما يتشـكل من خلالها مفهومنا للحياة ونعطي لها المعنى، وبالطبع فإنها تؤثر بشكل مطلق على مفهومنا للسعادة.

أما الظرف الاضطراري الأول فهو أننا نعيش على سـطح كوكب واحد هو كوكـب الأرض ومـن ثم فمـن المفروض علينـا أن نعيش في حـدود ما يوفره

لنا من موارد طبيعية محدودة محاولين تطويرها وحسن استخدامها في حدود معارفنا وتطورها حتى نستطيع الحياة على هذه الأرض والاستمرار فيها.

والظرف الاضطراري الثاني هو أن كل واحد منا عضو في جماعة البشر الذين يعيشون حوله، وأن وجودنا مرتبط بوجودهم، وأن الضعف الذي يميز الفرد البشري ومحدودية قدراته تجعل من المستحيل على أي فرد تحقيق أهدافه في الحياة بمفرده. ومن هنا فإن الفرد مرتبط بالمجموعة البشرية ارتباطًا وثيقًا وهي رابطة تمثل في أهميتها الحياة نفسها وبدونها فإن الحياة نفسها لن تستمر، فما بالك بسعادة الإنسان فيها!

أما الظرف الاضطراري الثالث الذي يحكمنا كبشر في هذه الحياة فهو أن الجنس البشري يتكون من رجل وامرأة وأن بقاء الجنس البشري واستمراره يعتمد عليهما معًا، وعلى هذا فعلى الإنسان أن يعي ضرورة مواجهة أي مشاكل تخص الحب والزواج بأريحية دون أن يفقد تصوره للسعادة في هذه الحياة.

وعلى ذلك يستنتج أدلر «أن المعنى الحقيقي للحياة هو في المساهمة التي تقوم بها لمصلحة حياة الآخرين، وهو أيضًا في الاهتمام الحقيقي والخالص في (التعاون) معهم» وهو يرى «أن التوحد أو الاتحاد الكامل مع باقي البشر هو واحد من أقدم الطموحات البشرية، وأن اهتمامنا بالآخرين هو الذي مكن الجنس البشري من التقدم والنمو، وأن العائلة ما هي إلا منظمة يكون فيها الاهتمام بالآخرين ضروريًّا».

ومن هنا فإن البحث عن السعادة في هذه الحياة – في اعتقادي كما في اعتقاد أدلر – مرتبط بالتقليل قدر الإمكان من إحساس الفرد بفرديته ومن انغلاقه على ذاته، لأن في هذا الانغلاق وفي هذه الأنانية المفرطة غياب

لمعنى الحياة الحقيقية بالنسبة للفرد، ومن ثم غياب لشعوره الحقيقي بالسعادة.

ولعل هذا هو ما أدركه أفلاطون صاحب دولة «المدينة المثالية» في محاورته الشهيرة «الجمهورية»، حينما انتقل في فكره من هذه الدولة المثالية الأولى التي بناها في تلك المحاورة على «الفرد»، إلى دولة مثالية جديدة في آخر محاوراته، محاورة «القوانين» بناها على «الأسرة»، حيث وجد أن الأسرة هي بحق اللبنة الأولى في بناء المجتمع السعيد، وهذا ما اتفق معه فيه تلميذه أرسطو الذي أكد هذه الحقيقة تمامًا في كتابه الشهير «السياسة».

ولا شك أن حياة الفرد وتمام سعادته مرتبطة بوجوده في مجتمع ينمو ويكبر من مجتمع الأسرة التي تقوم على الاتصال بين رجل وامرأة متحابين لإنجاب الأطفال الذين يشكلون عنصرًا مهمًّا من عناصر المجتمع الأسري السعيد، ومن هذا المجتمع الصغير مجتمع الأسرة تتشكل المجتمعات الأكبر، مجتمع القبيلة، مجتمع القرية، مجتمع المدينة .. وهكذا.

وقد صدق الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابي حينما قال في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» إن الفرد لا يبلغ أفضل كمالاته (أي لا يبلغ سعادته القصوى) إلا بالاتحاد والاجتماع مع غيره من البشر فيشكلون مجتمع المدينة الذي يعتبر في نظره هو أدنى المجتمعات الكاملة، حيث يلبي هذا المجتمع – مجتمع المدينة – كل حاجات الفرد المادية والمعنوية. ومن ثم تكتمل سعادته فيه.

إن المشكلات التي كانت تترتب على وجود الفرد في مجتمع بداية من مجتمع الأسرة كانت في الزمن القديم أقل بكثير مما هي اليوم، إذ إن البشر

قديمًا كانوا على استعداد أكثر للتعاون، وربما كان وعيهم الفطري الغريزي بل وربما العقلي أيضًا يحثهم دائمًا على الحياة المشتركة وعلى أن إدراك السعادة مرتبط بالعيش المشترك بين الرجل والمرأة، بين طبقات المجتمع المتباينة وخاصة حينما تؤدي كل طبقة أو كل فرد واجباته حسب مقتضيات وظيفته بشكل جيد.

أما مجتمعاتنا الحالية، تلك المجتمعات التي تعمقت فيها الفردية والأنانية، فإن البشر نادرًا - فيما يقول أدلر - ما يكونون مستعدين للتعاون، وما ذلك إلا لأن التعليم والتدريب الذي يحصل عليه الأفراد الآن يكون مركزًا على كيفية تحقيق النجاح الشخصي. ومن ثم فإن من السهل علينا أن نتوقع أو أن نفهم أنه عندما يعيش شخصان معًا في التلاحم والولاء الذي يتطلبه الزواج فإن الفشل في « التعاون » وعدم القدرة على الاهتمام بالآخر سوف يكون له نتائجه الخطيرة. وبالطبع فإن أبرز هذه النتائج هو فك الارتباط بين الزوجين كرد فعل طبيعي لعدم إدراك كل واحد منهما لرغبات واهتمامات الآخر والحرص على تلبيتها.

إن الحياة الزوجية والأسرية تتطلب خروج المرء من ذاته ومن النظر إلى مطالبه الذاتية الأنانية، ليتطلع إلى رغبات الآخر ومحاولة التوافق معها.

ولا يمكن لتلك الحياة الأسرية والاجتماعية أن تنجح بدون أن نكون على استعداد لأن نتعلم الإنصات إلى الآخرين، فنرى بعيونهم ونسمع بآذانهم ونشعر بإحساساتهم. إن الحياة الاجتماعية تقوم السعادة فيها بداية من مجتمع الأسرة إلى المجتمع ككل إذا ما صار بين أفرادها نوع من الصداقة الحقيقية. تلك الصداقة التي تبدو في إدراك متطلبات الآخرين وتلبيتها دون النظر إلى ما سيجنيه الفرد من منافع أو لذات من وراء ذلك.

وقد برع أرسطو في بيان الفروق الدقيقة بين «الصداقة الحقيقية» و«الصداقة المزيفة»؛ فالكثير مما ندعوه ويدعوه الشباب بالذات صداقة هو ليس كذلك. إذ ينبغي التمييز بين صداقة تقوم على اللذة أو على المنفعة حيث يتقرب إليه بعضهم رغبة منهم في الحصول على لذة وقتية أو منفعة آنية وتنتهي العلاقة بنهاية الحصول على تلك اللذة أو هذه المنفعة! ينبغي التمييز بين هذه الأنواع من الصداقات المزيفة وبين الصداقة الحقيقية التي تقوم على محبة الإنسان للإنسان وإدراك قيمة التعاون بين الأفراد لصالح المجتمع ككل، ولخير الإنسانية جميعًا.

صحيح أن الصداقة – أي صداقة – لا تخلو من طلب منفعة أو طلب لذة ما، لكن لا ينبغي أن تكون هذه المنفعة أو تلك اللذة هي الغاية المرجوة والنهائية، بل ينبغي أن يكون للتعاون وللصداقة قيمة في حد ذاتها بصرف النظر عن الحصول على تلك المنفعة أو هذه اللذة.

إن الصداقة القائمة على التعاون والتشارك والمحبة بين البشر في أي مجتمع إنما هي الرباط الحقيقي الذي ينهض به معًا أفراد هذا المجتمع أو ذاك. وقد صدق أرسطو أيضًا حينما قال إنه لو سادت الصداقة الحقيقية بين أفراد أي مجتمع ما احتاج هذا المجتمع لقوانين وتشريعات. وربما ما احتاج إلى حكومة أيضًا. وبالطبع فإن المعنى هنا عند أرسطو هو أن المحبة بين الأصدقاء الحقيقيين ستكون هي الحل لكل ما يطرأ على صداقتهم من مشكلات ومن ثم فهم لن يكونوا في حاجة لرفع النزاع – أي نزاع مفترض بينهم – إلى جهة أعلى سواء كانت هيئة قضائية أو تنفيذية حيث إنهم سيحلون مشاكلهم بالتفاهم وعبر الثقة المتبادلة.

وعلى كل حال فإنه إذا كان من غير المتصور قيام مثل هذا المجتمع الفاضل الـذي يقـوم على تبادل التعـاون والمنافع التي تجعل من الجميع سـعداء، فإنه علـى الأقـل يمكـن تصور ذلـك المجتمـع الـذي يقوم علـى احتـرام الجميع لمطالـب الجميع واحتـرام فرديتهم والحرص علـى مصالحهم بقدر الحرص على مصالح وتلبية رغبات الذات.

إننا لا ننشـد كأفراد وكمجتمع السـعادة الكاملة، لكننا فقط ينبغي أن ننشـد ذلك القدر المتكافئ للسـعادة المشـتركة التي تلبي الحد الممكن والمتاح من مطالب كل فرد من أفراد المجتمع، كلٍّ حسب مؤهلاته وحسب قدراته وبقدر ما يبذل من جهد مخلص في أداء واجبه.

الفصل الخامس

السعادة والفضيلة

ربط الكثير من الفلاسفة بين السعادة والفضيلة بحيث رأوا أن سعادة الإنسان الحقيقية لا تكون إلا حينما يمارس حياته العملية ملتحفًا بالفضيلة الأخلاقية. ولم يكن هذا الربط من فراغ، بل بني لديهم على تحليل دقيق لطبيعة الإنسان، فالإنسان في ماهيته هو الكائن العاقل، ومن ثم فإن عقلانيته هي جوهر خيريته وفضيلته.

فها هو سقراط (470–399 ق.م) فيلسوف اليونان الأشهر يؤكد على ذلك حينما رفع شعارًا لفلسفته هو «اعرف نفسك»، وقصد من ذلك أن على الإنسان أن يدرك حتى تنصلح حياته جوهر ذاته، وجوهرها هو هذا العقل الواعي الذي ينبغي أن يُعمله في سلوكه، فلا يسلك إلا بعد أن يفكر ويتأمل: هل هذا السلوك خير أم شر؟! لقد ربط سقراط بين الفضيلة والمعرفة قائلًا: » إن الفضيلة علم والرذيلة جهل"؛ فمَن يسلك طريق الفضيلة هو ذلك الإنسان الواعي الذي أدرك من ذاته أن في هذا السلوك الخير له وللآخرين، لأن للفضيلة ماهية ثابتة يتفق عليها البشر العقلاء ولا تتعدد بتعدد هؤلاء الأفراد كما كان يردد معاصروه من السوفسطائيين؛ فعلى حين كان السوفسطائيون يقولون إن السعادة في أن يبحث الفرد عن منفعته وأن يحيا وفقًا لإحساساته ومشاعره اللذية ومن ثم آمنوا بتعدد صور السعادة والفضيلة بتعدد مشاعر الأفراد ورغباتهم التي تختلف بالطبع من شخص إلى آخر، وهي لدى الفرد الواحد تختلف من وقت إلى آخر، كان سقراط يرى أن الفضيلة واحدة يدركها المرء مميزًا بينها وبين

الرذيلة وهي دائمًا في «إدراك الخير» والسلوك وفقًا لهذا الإدراك العاقل بأن حياة البشر لا تنصلح بدون هذا الاتفاق على معنى ثابت للفضيلة، فالصدق والإخاء والأمانة والكرم والشجاعة وغيرها إنما هي في نظر سقراط مسميات متعددة لنفس الماهية – ماهية الفضيلة – ففي كل هذه الفضائل المتعددة يكمن المعنى الثابت للفضيلة، فهي في كل تلك الفضائل «إدراك الخير».

إن الإنسان الفاضل عند سقراط هو الإنسان السعيد الذي دائمًا ما يكون سلوكه متوافقًا مع ماهيته العاقلة التي تدرك أن حقيقة الخير واحدة ولا تترك طريقه أبدًا مهما كانت متغيرات الحياة ومنافعها الآنية. وقد دفع سقراط حياته ذاتها ثمنًا لهذا الثبات على الفضيلة، وحينما حاول تلاميذه تهريبه من السجن رفض ذلك قائلًا: «أتتخيلون مدينة لا يحترم أهلها القانون؟! ألا تندك هذه المدينة من أساسها؟! إن احترام القانون حتى لو كان قد طبق عليَّ ظلمًا فيه السعادة للجميع. ومن ثم فعلى الأفراد احترامه سواء كنا ظالمين أو مظلومين لأن باحترامه تتحقق الحياة المثلى للمجتمع ككل».

وتحقيقًا لهذه الرؤية المثالية السقراطية بنى تلميذه أفلاطون دولة المدينة المثالية على العدالة واحترام القانون. كما كشف عن أن للخير الأخلاقي «مثال» أي طبيعة وماهية محددة على الجميع إدراكها ومن ثم السلوك وفقًا لها. فالفضيلة والخير لا يتجزءان. والإنسان الفاضل هو الإنسان السعيد الذي يحقق العدالة داخل نفسه بأن يمارس وظائفها وفقًا لطبيعتها العاقلة؛ فوظائف النفس الإنسانية عند أفلاطون ثلاث، هي: التفكير والغضب والشهوة، فإن تحلت النفس المفكرة بفضيلة الحكمة نجحت في أن يمارس الإنسان الغضب والشهوة باعتدال، والاعتدال هنا يعني أن تتحلى النفس حين الغضب بالشجاعة وحين طلب الشهوة بالعفة.

فالإنسان السعيد حقًّا عند أفلاطون ينبغي أن يتمتع بممارسة حياته وفقًا لهذه الفضائل الثلاث: العفة، والشجاعة، والحكمة، ففيها تتحقق فضيلته الأسمى وهي «العدالة». أي أنه سيكون عادلًا مع نفسه فلا تغلب إحدى قواها القوى الأخرى، ومن ثم ينتفي الصراع داخل النفس وتحيا حياتها باعتدال. وهكذا أيضًا يكون المجتمع المثالي السعيد عند أفلاطون، فهو المجتمع العادل الذي يتكون من أفراد وطبقات كل منها يقوم بواجبه على الوجه الأكمل، فالطبقات الثلاث في المجتمع (طبقة المنتجين وطبقة الجند وطبقة الحكام) تقوم كل واحدة منها بوظيفتها متحلية بفضيلتها، فالمنتجون ينتجون الخيرات المادية متحلين بفضيلة العفة، والجنود يمارسون الدفاع عن الدولة متحلين بفضيلة الشجاعة، والحكّام يحكمون متحلين بفضيلة الحكمة، وحينما يكون رأس الدولة حكيمًا يكون قادرًا على توجيه الطبقات الأدنى بحيث تمارس كل طبقة وظيفتها على الوجه الأكمل فتكثر الخيرات المادية التي ينتجها المنتجون شاعرين بالسعادة في دولة سعيدة يحكمها الفيلسوف الحكيم ويمارس كل فرد فيها وظيفته طبقًا لطبقته ومؤهلاته. إن الدولة حينئذٍ تكون هي الأخرى فاضلة أي سعيدة بسعادة كل أفرادها.

وعلى نفس النحو، سار أرسطو تلميذ أفلاطون في تحليله لذلك التوحيد بين الفضيلة والسعادة، لكن تميزت تحليلاته بتفضيلات أكثر. وقد جاءت تحليلاته التفضيلية على النحو التالي:

إن الخير هو ما يطلبه كل شيء في الوجود، فماذا يكون الخير بالنسبة للإنسان بما هو كذلك ؟ إن الإجابة على سؤال كهذا يقتضي بداية البحث أولًا عن طبيعة الخير وثانيًا عن المقصود بالخير وتفاوت البشر في ذلك.

أما البحث عن طبيعة الخير فيقتضي التمييز دائمًا بين الأفعال ونتائج الأفعال وكلاهما من الغايات التي يطلبها الإنسان في حياته. وعمومًا فإن الغايات من النوع الثاني أفضل من النوع الأول إذ إن الفعل من النتيجة بمثابة الوسيلة من الغاية. وبالطبع فإن الغاية أفضل من الوسيلة، والغاية تكون أفضل إذا ما كانت غاية في ذاتها ولا تتحول يومًا إلى وسيلة لغاية أبعد، فإذا سألت مريضًا مثلًا: لماذا تجمع المال؟ لقال لك إن غايته هي العلاج من المرض الذي ألم به، وإذا ما سألته: وما غايتك من العلاج؟ لكانت الإجابة: هي الصحة. وإذا ما سألناه: وما الغاية من الصحة؟ لكانت الإجابة: ممارسة الحياة بشكل يحقق اللذة. وإذا ما تساءلنا مرة أخرى: وما الغاية من هذه اللذة وممارستها؟ لكانت غاية الغايات التي لا يمكن اعتبارها وسيلة لغاية أبعد هي: السعادة!

إن أي فعل إنساني إذن له غاية، وكل غاية تتحقق تنقلب في لحظة ما إلى وسيلة لتحقيق غاية أبعد حتى تنتهي في سلسلة الغايات والوسائل إلى غاية الغايات التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها في حياته والتي تمثل الخير الأقصى له وهي السعادة.

إذن الخير الأقصى هو السعادة، تلك إذن غاية أي فعل إنساني كما أجمعت على ذلك آراء الناس العامة والخاصة. وهنا يجدر التساؤل عن: ماهية السعادة.

وحيث يثار هذا التساؤل يبدو الخلاف بين الناس واضحًا، فعامة الناس عادة ما يرون أن السعادة هي حياة اللذة أو حياة الجاه والسلطان أو حياة الثروة والمال. أما الخاصة وعلى رأسهم الفلاسفة كأفلاطون وأتباعه مثلًا فيرون العكس تمامًا، فهم يعتقدون أن كل هذه الأشياء ليست خيرًا في ذاتها وإنما

تستمد خيريتها من مبدأ أعلى وأن هذا المبدأ «المثال» عند أفلاطون هو الخير وهو علة كل خير آخر.

إن نقطة البداية التي ينطلق منها أرسطو هي حياة الفضيلة كما تتجلى في سيرة الرجل العادي الفاضل نفسه أيًّا كانت رؤيته للسعادة فإن كان يرى أن الفضيلة المحققة للسعادة هي اللذة أو الجاه ناقشناه فيما يتصور فإن اللذة إذا كان مقصود بها كما هو شائع عند العامة اللذة الحسية لكشفنا له بداية أنها لذة وقتية ويعقبها الألم فضلًا عن أنها لا تحقق ماهية الإنسان ووظيفته الأسمى.

أما إن كان صاحبنا من القائلين بأنها في الجاه أوضحنا له أنه وضع سعادته في يد غيره، إذ إنها هنا لدى مانح الجاه أكثر مما هي لدى ممنوحه. ثم إن الجاه هو من الفضيلة يعد في منزلة الجزاء أو المكافأة أي أنه الجزاء الذي يصيب من اختار حياة الفضيلة، وبالتالي فحياة الفضيلة متقدمة على هذا الجزاء أو تلك المكافأة!

ولما كانت صور البحث عن السعادة مختلفة ومعانيها مختلفة رغم أن الجميع يرى أنها الأحرى باسم الفضيلة، الأجدر بنا أن نتساءل بداية لا عن معنى السعادة، بل عن معنى الفضيلة. فإذا ما أدركنا ماذا تعني الفضيلة بالنسبة لطبيعة الإنسان ككل أدركنا بالتالي ما هي الصورة الحقيقية للسعادة الموافقة للفضيلة والموافقان معًا للطبيعة الإنسانية.

إن مصطلح الفضيلة Virtue-Arête يعني عند اليونانيين الميزة أو الخاصة Excellence التي يتميز بها الشيء فكونك فاضلًا يعني كونك ممتازًا في الفعل الذي يميزك عن غيرك، فأخيل عندهم كان رجلًا فاضلًا باعتباره كان المحارب الممتاز (البطل).

وعلى ذلك فخير الإنسان ككل هو عبارة عن كمال نفسه الناطقة بأدائه وظيفته الخاصة على أكمل وجه. فإذا كان ما يميز الإنسان وخاصته المميزة هي أنه ذلك الكائن الناطق المفكر فإن معنى ذلك أن فضيلته تبدو حين تمارس هذه الوظيفة وكلما اقترب من الكمال في أداء هذه الوظيفة، ارتقى في سلم الفضائل حتى أسماها وأعلاها طوال حياته وليس لفترة قصيرة منها.

إن الفضيلة الإنسانية إذن بوجه عام والتي تحقق سعادته هي فعل من أفعال النفس العاقلة وليست فعلًا من أفعال الشهوة أو اللذة وهنا يبدو المقصود الأولي للفضيلة عند أرسطو.

وقد أبدع أرسطو في الدفاع عن هذا الرأي الذي يوحد توحيدًا يكاد يكون مطلقًا بين السعادة والفضيلة واللذة في مركب واحد هو التأمل وقد جاء دفاعه من زوايا أخلاقية ومعرفية عديدة نذكر منها:

1) إن التأمل هو الذي يحقق للإنسان حياة الاستقلال، ففي الفضائل الأخرى كالعدالة والشجاعة والاعتدال يحتاج الإنسان العادل إلى أناس يقيم بينهم عدله وكذلك الحال في الشجاعة والاعتدال وسائر الفضائل الأخرى، بينما الفيلسوف المتأمل يحقق فضيلة التأمل بانكبابه على الدرس والفهم.

2) إن حياة التأمل هي وحدها الحياة المحبوبة لذاتها، لأنه لا ينتج من هذه الحياة إلا العلم والتأمل في حين أنه في سائر الأشياء التي فيها يجب الفعل يطلب المرء دائمًا نتيجة غريبة عن الفعل كثيرًا أو قليلًا، ففي حياة التأمل إذن يتجه فعل التأمل إلى تحقيق غايته من ذات التأمل ولا يحتاج المرء فيها إلى تحقيق غاية أبعد حيث يحقق الفعل غايته من ذاته باكتشاف حقيقة ما يتأمله أو فهم ما يريد فهمه.

3) إن حياة التأمل هي ما يحقق للإنسان أقصى قدر من الراحة والطمأنينة ومن ثم السعادة وإذا ما قورنت بحياة السياسي أو المحارب لوجدنا أن حياة هؤلاء ليس فيها فراغ كما أنها مليئة بأسباب الاضطراب والقلق ورغم أن حياة السياسي والمحارب تفوق - في نظر الكثيرين - الحيوات الأخرى في البهاء وفي الأهمية إلا أنها ليست سوى أفعالٍ لا تحقق الاستقلال عن الناس وعن الجميع بل هي من أجلهم. ومن ثم فأفعال الساسة ورجال الحرب ليست مطلوبة لذاتها وإنما مطلوبة لتحقيق نتائج نافعة للناس وللمجتمع، وهي في طريقها إلى تحقيق ذلك تصطدم بعشرات العقبات التي تنتفي معها الراحة وتعز معها الطمأنينة.

4) إن حياة التأمل هي الحياة الشريفة التي تناسب الأصل القدسي للإنسان وإذا كان البعض ينصحون الإنسان بألا يفكر إلا في أشياء إنسانية باعتباره كائنًا فانيًا لا ينبغي أن يفكر إلا فيما هو فانٍ فإنه يرفض ذلك ويطالب الإنسان بألا يصدق هذا الكلام، لأن الحق عن ذلك بعيد ويلزم الإنسان أن يخلد نفسه بقدر ما يمكن. فهو يرى أن حياة التأمل هي الحياة الأكثر قداسة نظرًا لأنها تشبه حياة الإله الذي هو عقل وعاقل ومعقول. ولما كان الإنسان بإمكانه أن يحيا حياة التأمل، فلِمَ لا يحياها مقلدًا حياة الإله؟ فضلًا عن أن هذه الحياة - حياة التأمل - هي التي بموجبها يمكن للإنسان أن يصل إلى إدراك الإله فيكتسب في حياته خلودًا هو أليق به نظرًا لأنه الكائن الوحيد الذي يمكنه إدراك وجود الإله بعقله المتأمل القادر على مفارقة هذا العالم ليدرك ما وراءه.

5) إن حياة التأمل هي إذن حياة السعادة الكاملة، نظرًا لأنها تشبه حياة الآلهة إننا نفترض دائمًا بلا جدال أن الآلهة هي أسعد الكائنات وأوفاها حظًّا، ولما كان الفعل الأليق بالآلهة والذي يحقق لها السعادة الكاملة هو فعل تأملي

محض فإن الفعل الذي يقترب عند الناس من ذلك هو الفعل الذي يكون أكثر علة للسعادة من أي فعل آخر.

6) إن فعل التأمل هو أيضًا ما يجعل من الإنسان الحكيم محبوبًا من قبل الآلهة، إنه إذا كان للآلهة عناية ما بالمسائل الإنسانية، كان من الأمور البسيطة أن يرضيهم أن يروا على الخصوص في الإنسان ما هو أحسن ما يكون، وما هو أكثر قربًا من طبعهم الخاص.

وقد أخذت قضية التوحيد بين الفضيلة والسعادة منحى آخر عند فلاسفة اليونان في عصرهم الثاني المسمى بالعصر الهللينستي حيث ركزوا بحثهم العقلي عن معنى جديد للسعادة لا يلتمسه الفرد من الحياة الاجتماعية، بل يلتمسه من ذاته الفردية، فها هو أبيقور زعيم المدرسة الأبيقورية يرى أن السعادة إنما تبدو أكثر ما تبدو للإنسان البسيط القادر على التمتع بكل ما هو طبيعي وضروري من رغبات لأنه هو القادر على إشباعها دون أن يطلب المزيد والمزيد؛ فالفقر المتزن مع حاجاتنا غنى وفير، وعلى العكس من ذلك فالغنى فقر مدقع بالنسبة إلى مَن لا يعرف حدودًا. إن الحياة السعيدة عند أبيقور لا تتمثل في السكر المتواصل فيما تقدمه المآدب الفاخرة من سمك شهي وأطعمة لذيذة، ولا في التمتع بالنسوة والغلمان، بل تتمثل في العقل اليقظ الذي يبحث عن أسباب اختيارنا لشيء ما أو تجنبنا له والذي يرمي عرض الحائط الآراء الباطلة التي يتولد عنها أكبر اضطراب تعرفه النفس.

ولا شك أن تلك الكلمات الأخيرة من أبيقور هي دعوة إلى إعمال العقل في السلوك بشكل من الأشكال التي تتسق مع مذهبه العام؛ فالعقل اليقظ الحكيم هو القادر على أن يحدد لنا ذلك التمييز السابق بين أنواع الرغبات ودرجاتها، وهو القادر على أن يوجِّه سلوك صاحبه ويلزمه بالاقتصار على ما

هـو طبيعي وضـروري من هذه الرغبات لأن في ذلك الاكتفاء بما هو ضروري تكمن السعادة الحقة.

وإذا كانت ممارسـة اللذة المعتدلة والاكتفـاء بما هو ضروري وطبيعي من رغباتنا سـيحقق لنا التخلص من آلام الجسـد ويحقق صحة الجسم، فماذا عن صحة النفس ؟ وكيف يتجنب الحكيم الآلام النفسـية وهي أشـنع وأشد إيلامًا من آلام الجسـد لأنها أكثر دوامًا واسـتمرارًا فهي لا تتعلق بالحاضر فقط وإنما تتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل؟

إن جانبًا من هذه الآلام النفسـية إنما يتعلق بلا شك بتلك اللذات الجسمية التي لو لم تتحقق ولَّدت ألمًا، وإن أشبعت طلبت المزيد!

والسـؤال هو: كيف نتجنب هذه الآلام النفسـية ونحن لا نملك في اللحظة الحاضرة إمكانية إشباع تلك الرغبات الجسمية ؟

لقـد لجـأ أبيقور فـي إجابته عن مثـل هذا السـؤال إلى فكرتي التذكـر والحدس الذهني، فهما يضعان حلًّا لهذه المشكلة وهو من العمق السيكولوجي إلى حد يدعو إلى الدهشـة ، إذ يمكننا باسـتخدام الذاكرة والحدس تثبيت اللـذة العابرة وتخفيف الألـم الوقتي، فبالذاكرة يمكننا اسـتدعاء وتذكر اللـذات الماضية وهذا في حد ذاته لذة، وبالحدس الذهني أو التوقع يمكننا الرجاء في لذات مستقبلية وتخيلها.

إننـا بهذه الوسـائل نسـتطيع أن نسـتمتع بفن أطلـق عليه أبيقور فـن التمتع بالمشـاعر السعيدة والتخلص من المشاعر الأليمة؛ فحينما تعرض لنا لذة وإن صغرت فإنه ينبغي الاسـتمتاع بها أبلغ اسـتمتاع وأن نثبت صورتها في الذاكرة وأن نتمسك بها بكل ما أوتينا من قوة، أما إذا اعترانا الألم فإنه ينبغي علينا قهره باستعادة ذكريات اللذات الماضية والأمل في لذات ومسرات مستقبلية.

لقد كتب إلى أحد أصدقائه وهو على شفا الموت: أكتب إليك في نهاية يوم سعيد من أيامي، فآلامي لا تفارقني وما عاد في مقدورها أن تزيد عما هي عليه، وكل ذلك أقابله بالفرح الذي أسكنته في نفسي ذكرى مناقشاتنا الماضية. إن ذكريات الأيام الماضية وما كان فيها من مناقشات جلبت لأبيقور السعادة والفرح، هي التي ساعدته على قهر الآلام التي يعانيها وجعلته يشعر بالسعادة والطمأنينة. إن الحكيم بهذا الضرب من مران الذاكرة والتخيل الذي يدعو إليه أبيقور يتمكن من اصطناع السعادة الدائمة لنفسه.

وإذا ما تركنا آلام النفس المتعلقة بآلام الجسم، وانتقلنا إلى الآلام النفسية الخالصة؛ تلك الآلام التي تتعلق بكل أنواع المخاوف التي تساور الإنسان فتفسد عليه الاستمتاع بحياته، فإن أبيقور قد حصر هذه المخاوف التي تستبد بالبشر في ثلاثة هي: الخوف من الموت، والخوف من الآلهة، والخوف من العذاب بعد الموت.

وقد بذل جهده في تخليص الإنسان من هذه المخاوف استنادًا إلى نظريته الحسية في المعرفة وفلسفته المادية في تفسير الطبيعة ونظرياته حول النفس والألوهية؛ فالخوف من الموت يزول إذا ما اعتقد المرء برأي أبيقور القائل بأن النفس فانية وأن الموت يعني انعدام الإحساس فلم يعد يمثل شيئًا بالنسبة للإنسان. وإذا قلنا إن الإنسان لا يخشى الموت في ذاته بل يخشى الآلهة وعقابها! فإن أبيقور يرد قائلًا: إن مَن يؤمن بالآلهة يؤمن بأنها تحيا حياة السعادة الكاملة وأن لها حياتها المستقلة عن حياة البشر وهي لا تزيد من سعادتها أن تتدخل في حياة البشر أو أن تراهم معذبين قلقين لا في حياتهم الأولى ولا بعد الموت!

وفي ضوء ذلك، فإن الحكيم الأبيقوري قد امتلك علاجًا دائمًا له مقومات أربعة إذا اتبعه تمتع حقًّا بالصحة الجسمية والسعادة والطمأنينة النفسية، وهذه المقومات هي: عدم الخوف من الآلهة، كون الموت لا شيء بالنسبة لنا، سهولة تحصيل الخير، سهولة تحمل الألم. وعلى ذلك، فالفلسفة عند أبيقور تلعب دورًا شبيهًا بدور الطب، فمثلما يخلصنا الطب من ألم الجسم، كذلك يجب أن تخلصنا الفلسفة من ألم النفس.

ومن هنا دعا أبيقور الجميع إلى التفلسف سواء كانوا شبابًا أم شيوخًا، فمن المأثور عنه قوله: ينبغي ألا نتوانى عن التفلسف عندما نكون شبابًا، وألا نكل منه عندما نصبح شيوخًا لأنه لا يمكننا البتة أن نقول إننا ما زلنا صغار السن على أن نهتم بصحة النفس أو أننا أصبحنا كبار السن على ذلك. مَن يدعي أن وقت التفلسف لم يحن بعد أو أن وقته قد فات يشبه مَن يقول إن الوقت لم يحن بعد ليكون سعيدًا، أو إن الوقت قد فات ليكون سعيدًا. من الضروري إذن أن يعكف الإنسان على الفلسفة سواء أكان فتى أم شيخًا، هذا ليجدد شبابه بالخيرات الماضية، وذاك ليكون رغم حداثة سنه حازمًا حزم الشيخ تجاه المستقبل.

وإذا كانت تلك هي روشتة أبيقور للتغلب على كل المخاوف والآلام سواء كانت جسدية أو نفسية لنعيش حالة الأتراكسيا (أي الاطمئنان والسعادة الداخلية) ، فإن معاصريه من الفلاسفة الرواقيين كانت لديهم روشتة أخرى.

إن فلاسفة الرواق (زينون الرواقي وأتباعه) كانوا في مجموعهم يميلون إلى الاعتقاد بأن السعادة بأيدينا وهي تنبع في الأساس من داخلنا، فقد أكدوا أن سعادة الإنسان لا تخضع للظروف التي تحيط به بقدر ما تتوقف على حالته النفسية في مواجهة هذه الظروف وحكمه عليها. إن ردود أفعالنا إزاء ما يمر بنا من أحداث هو ما يتشكل بمقتضاه شعورنا بالسعادة أو بالألم. ومن هنا

فقد أولى الرواقيون جُل عنايتهم بدراسة الانفعالات الإنسانية؛ وقد قرر زينون أن الانفعالات ما هي إلا حركة لا عقلانية ولا طبيعية في النفس وحصرها في بحثه عن الانفعالات On The Passions في أربعة أنواع رئيسية هي: الحزن، والخوف، والرغبة، واللذة. كما قرر هو وأقرانه - وخاصة كريسبوس في بحثه عن الانفعالات - أن الانفعالات هي أقرب ما تكون إلى الأحكام، فما البخل إلا الظن بأن المال هو الخير، وهذا هو الحال في إدمان الشراب والفجور وكل الانفعالات المشابهة. أما الألم أو الحزن فهو تقلص أو رد فعل لا عقلاني، فالشفقة هي الألم الذي يشعر به الإنسان إزاء أحد قد أصيب بشرور لا يستحقها، والغيرة مصدر الألم فيها أن شخصًا آخر قد امتلك ما يشتهيه أحدنا لنفسه، والحقد هو ألم ناتج عن الإحساس بأن الآخر قد امتلك ما امتلكه لنفسه.. إلخ.

وهكذا كل الانفعالات؛ فالخوف هو توقع للشر وأنواعه كثيرة منها: الفزع والخزي والذهول والاضطراب، أما الرغبة فهي ميل غير عقلاني نحو حب الصراع والغضب والحب والغيظ والكراهية. أما اللذة فهي إثارة غير عاقلة للنفس تجاه كل ما هو مرغوب فيه وينطوي تحتها المتعة والارتخاء والسرور بكل ما يؤذي الآخرين.

وإذا كانت الانفعالات السابقة انفعالات ضارة وينبغي التقليل منها بل والإقلاع عنها في نظر الرواقيين فإن ثمة انفعالات طيبة ضد الانفعالات السابقة. ولقد لخصها الرواقيون في ثلاثة هي: الفرح، والحذر، والإرادة الطيبة. فالفرح ضد اللذة حيث إنه سمو بالنفس العاقلة، والحذر ضد الخوف حيث به يمكن تجنب ما ينبغي تجنبه، أما الإرادة الطيبة فهي ميل دائم نحو العقلانية وضبط اللذة، فهي ضد اللذة.

وهكذا فإذا كانت الانفعالات عمومًا هي حركة غير عاقلة في النفس كما عرَّفها منذ البداية زينون، فإن منها ما يوافق العقل عليه، فعلى الرغم من أنهم ضد التطرف في الجري وراء اللذة، وضد التطرف في الشعور بالألم، فهم يرون أن الفرح بديل للذة والحذر بديل للخوف والإرادة العاقلة الخيرة هي الضامن لكل ذلك، فيها يكون الفرح بغير مغالاة، وبها يكون الحذر من الوقوع في براثن الخوف والقلق وما يترتب عليهما من اضطرابات نفسية حادة تكون حائلًا يحول دون شعور الإنسان بالرضا والسعادة.

وفي كل الأحوال فإن ما أطلق عليه الرواقيون انفعالات أو مشاعر طيبة إنما هي في واقع الأمر دعوة إلى الاعتدال وعدم التطرف في الانفعالات؛ لأن هذا التطرف بشقيه سواء كان ميلًا نحو اللذة أو ميلًا نحو الألم إنما هو مكروه وهو ضد العيش وفقًا للطبيعة العاقلة للإنسان. وهذا ما يدعونا للتساؤل عن المثل الأعلى للسلوك الإنساني في نظر الرواقيين، أو بعبارة أخرى: ما هي صورة الإنسان الكامل السعيد عندهم؟

إن أول المبادئ التي تقود الإنسان إلى هذا المثل الأعلى للإنسان الكامل في نظر الرواقيين هو « مبدأ الخلو من الانفعالات» وهذا هو ما يسمى عند الرواقيين حالة الأباثيا Apathy فالحكيم رجل لا انفعالات له لأنه لا يترك نفسه يسقط فيها.

أما ثاني المبادئ المميزة للإنسان الحكيم فهي الإخلاص ومحاولة الظهور بأفضل صورة ممكنة، فيظهر من الأشياء أفضل ما فيها ويخفي ما فيها من مساوئ، وهو لا ينافق ولا يرائي ولا يتصنع، وهو لا يتدخل في علاقات تجارية قد تكون معارضة للائق أو للمناسب. أما ثالث المبادئ المميزة للحكيم الرواقي فهي أنه رجل يعلن دائمًا أنه مؤمن بالألوهية، فبداخله هذا الإيمان بالقداسة، بينما

الأشرار من الناس لا يؤمنون بالآلهة. ومن ثم فالحكيم هو الإنسان التقي الذي يعلم العبادات والطقوس المفروضة عليه، فهو يقدم الأضاحي للآلهة، ومن ثم يتطهر ويبتعد عن كل خطيئة ويسير دائمًا في طريق القداسة والعدالة.

أما رابع خصائص الحكيم الرواقي فهي أنه ممَّن يهتمون بالعمل السياسي إلا إذا وجد ما يمنعه من ذلك، وهو ممَّن يفضلون الزواج وإنجاب الأطفال كما يقول زينون.

أما خامس صفات الحكيم الرواقي فهي أنه وديع ولا يضر نفسه ولا غيره، وفي ذات الوقت فهو لا يسامح ولا يشفق على مَن تقع عليه عقوبة أنزلها القانون، فالتسامح والرفق لا يصلحان مع مَن كان ممَّن ينبغي إنزال العقاب بهم. إن الرجل الحكيم لا يرى أن إنزال العقوبات بالمجرمين والأشرار مسألة قاسية، وهو كذلك لا يعجب ولا يندهش من وقوع أحداث قد تبدو مستحيلة التصديق. ومع كل ذلك فالحكيم يجب أن يعيش في عزلة وهو لين الطبع، لكنه في ذات الوقت يحب الناس والمجتمع. فهو محب للصداقة حينما تكون حسب تعريفهم مشاركة في كل أمور الحياة، فالتعامل مع الصديق كأنما هو تعامل مع النفس، والحصول على الصداقة في رأيهم أمر مستحب، وكثرة الصداقات مسألة خيرة.

وباختصار فإن الحكيم عند الرواقيين هو الرجل المثالي في كل شيء، الكامل في شعوره بالسعادة، هو وحده الحر، ومن ثم فهو وحده الأجمل والأغنى والأسعد؛ إنه الذي يحوز كل الفضائل وكل المعرفة. فهو وحده الذي يفعل الصواب في كل شيء. وهو وحده الملك الحقيقي، السياسي الحقيقي، الشاعر الحقيقي، هو الملهم والمرشد ، هو المتحرر كلية من الحاجات والآلام، وهو الصديق المحبوب للآلهة.. إلخ.

إن الأخلاق الرواقية تقوم على مبدأ الحياة وفقًا للطبيعة، مبدأ التعاطف مع الطبيعة الخارجية ومع البشر أيًّا كانت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم، فالعيش وفقًا للطبيعة يقتضي بالضرورة الإيمان بالمساواة بين البشر كما يقتضي بالضرورة الاعتقاد بأن الإنسان هو جزء من هذا الكون الكبير. وهو مخلوق ليؤدي دورًا في هذا العالم الطبيعي مثله مثل أي كائن آخر. وقد قيل ما قيل في ذلك من أن الرواقيين كانوا - و هذا صحيح - يؤمنون بأن الإنسان في هذه الحالة أشبه بممثل يؤدي دورًا مرسومًا على مسرح الحياة، وهذا الدور محدد له من قبل العناية الإلهية، وهو قدره المحتوم الذي لا فكاك منه ، لكن الحقيقة أن سلوك الحكيم الرواقي لا يتسم بالسلبية، لأنه يسلك وفقًا لإرادته العاقلة التي تمكنه من أن يفعل كل ما يفعله على نحو يتوافق مع عمله ومع الطبيعة في آن واحد. ولما كانت الفضيلة عند الرواقيين واحدة ولا تتجزأ فكل سلوك يسلكه الرواقي إنما يسلكه باعتباره السلوك الأفضل. والحكيم الرواقي على وجه الخصوص هو كما قالوا: «الرجل الذي يكتشف ويعرف كل ما ينبغي من فضائل ويفعله فعلًا»، كما أنه يفعل ما يفعله بإرادته العاقلة ويعرف ما ينبغي أن يصر على فعله ويفعله بثبات.

ومن هنا ينبغي أن نتفهم أن ثمة فرقًا بين الخضوع للقدر وأداء الأمر المنوط بالإنسان بشكل سلبي لا إصرار فيه ولا شجاعة في مواجهة أضراره أو مآسيه، وبين نفس الخضوع لكن وفقًا لمعرفة وعلم أكيدين من الحكيم يجعلانه يقوم بدوره وفقًا لما يدرك أنه واجبه الذي ينبغي أن يصر على أدائه أيًّا كانت النتائج. ولنا في سير حياة الرواقيين من الأمثلة على ذلك الكثير وبالذات لدى الرواقيين المتأخرين من أمثال سينكا وإبكتيتوس وماركوس أوريليوس؛ فقد قضى سنكا نحبه امتثالًا لقدر ظالم وخضوعًا لأمر الطاغية نيرون بعد أن قطع شرايينه وظل

الـدم ينزف منه حتـى مات وهو لا يعبـأ بالموت وواجهه بشـجاعة وهو يؤدي واجبـه في نصـح تلاميذه ومريديه. إن أداء الرواقي لدوره سـواء كان سـيدًا أو عبدًا لا يتسـم بالسـلبية، بل على العكس كان يتسـم بالإيجابية الشـديدة ، تلك الإيجابيـة التي تتمثل فـي إدراك الرواقي الواعي بأن عليـه أداء هذا الدور وفقًا لمبـدأ الواجـب، ذلك المبدأ الذي يجعل من أداء الـدور والخضوع لتصاريف القدر مسـألة تتسـق مع عقلانية الرواقي وكرامته التي تعلو على الآلام وتواجه القدر بشـجاعة لا يقدر عليها إلا العارفـون والمتحكمون في الانفعالات بهذا الشـكل الـذي يرقـى بالرواقي إلـى درجة المصلـح أو صاحب الرسـالة الذي لا يتزعزع إيمانه أمام أي شدائد أو صعاب يواجهها مهما كانت!

ولعـل فـي القصة التالية مـا يؤكد كل ذلك ومـا يوضح لنا بحـق الفرق بين أداء الدور بشـكل سـلبي مستسـلم، وبين أدائه طبقًا لمبدأ الواجب وبالشجاعة اللازمة لمواجهة أصعب المواقف بثبات لا يلين.

فقـد أرسـل الإمبراطور تيتـوس فسباسـيانوس إلى هلفيديوس برسـكوس الرواقـي برسـالة يطلـب منه ألا يحضر جلسـة من جلسـات مجلس الشـيوخ. فـرد هلفيديـوس قائلًا: كان بإمكانـك أيها الإمبراطور أن تحـول دون انتخابي عضـوًا في مجلس الشـيوخ، ولكن مـا دمت قد أصبحت عضـوًا فيه فلا بد لي من الذهاب إلى المجلس، فأرسـل إليه الإمبراطور قائلًا: ليكن ذلك ولتذهب ولكن لا تتكلم. فرد الرواقي قائلًا: أنا سـأصمت طالما لم تسـألني عن شـيء. فقـال الإمبراطـور: لكن لا بد أن أوجـه إليك بعض الأسـئلة. فأجابه الرواقي: إذن لا بد لي أن أقول ما أراه حقًّا. فقال الإمبراطور: إذا تكلمت بما ترى أمرت بقتلـك أو نفيك. فكان الجواب النهائي مـن الرواقي: ومتى قلت إنني خالد؟!

أنت تؤدي دورك وأنا أؤدي واجبي. مهمتك قتل الناس أو نفيهم. ومهمتي أن أموت دون وجل وأن أذهب إلى المنفى بدون جزع ولا ابتئاس.

وهكذا كان سلوك حكماء الرواقية دائمًا، إنه سلوك لا يبدو فيه التحدي ولا الصلف ولكنه يتصف بالاستقامة والبساطة وثقة الرجل بكرامته، وفي مثل هذا السلوك الواعي بطبيعة الإنسان وبطبيعة الفضيلة تكمن السعادة لدى الإنسان الرواقي.

ولا يظن أحد أن تلك كانت فقط آراء هؤلاء الفلاسفة القدامى، بل هي أيضًا آراء الكثير من الفلاسفة المحدثين؛ فها هو الفيلسوف الألماني الشهير إيمانويل كانط (1724-1804م) يبني مذهبه الأخلاقي المثالي على مقولة تطابق رؤية الرواقيين وسابقيهم من فلاسفة اليونان حينما يقول: « افعل وكأنك تسن قانونًا عامًّا للناس جميعًا ». ففي هذا المبدأ تكمن الصورة المثالية الحديثة للإنسان السعيد الذي يتصرف في نظر كانط طبقًا لمبدأ الواجب الأخلاقي، فلا يتصرف أي تصرف مشين يحقق المصلحة الذاتية ولا يصلح للتعميم، إنما ينبغي أن يسلك السلوك الصحيح الذي يمكنه أن يكون مبدأً عامًّا للناس جميعًا تنصلح به حياتهم الاجتماعية ويحيون به جميعًا حياة السعادة.

والخلاصة أنه على الإنسان دائمًا أن يدرك أن حياة السعادة التي ينشدها لا ترتبط به وحده، بل ترتبط حياته السعيدة بحياة مَن حوله من البشر، بل بحياة البشر أجمعين، مَن عاصروه ومَن سيأتون من بعده، فالخير والسعادة هما هدف حياة البشر أجمعين.

الفصل السادس

السعادة والمستقبل

إن من أهم مسببات التعاسة للبشر وخاصة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية هو أنهم مشدودون دائمًا إلى الماضي يتحسرون على أنهم لا يستطيعون تقليده ومحاذاته على اعتبار أن ماضي الأمة، وخاصة في قرونها الهجرية الأولى، كان مجيدًا وسعيدًا، حقق العرب والمسلمون فيه النصر تلو النصر في ميادين الحياة كافة فنجحوا في نشر دينهم في أرجاء العالم الأربعة وتعلموا كل علوم الآخرين وفلسفاتهم ونجحوا في تجاوزها والإبداع فيها فكان منهم العلماء العظام والفلاسفة العظام وأدار كل ذلك الحكام العظام الذين تعاقبوا على ولاية أمر الأمة الإسلامية حتى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز الذي بلغت الأمة ومَن عاشوا في كنفها في عصره حياة السعادة لدرجة أن الطير والبهائم كانت تحيا هي الأخرى حياة السعادة وسط هؤلاء البشر السعداء.

لقد روي عنه أنهم جاءوا ليخبروه أن بيت المال امتلأ بالخيرات وفاض كثيرًا عن حاجة الناس، فقال لهم: زوجوا مَن لم يتزوج، قالوا: لقد فعلنا، وما تركنا أحدًا يحتاج لشيء إلا أعطيناه إياه دون أن يطلبه! فقال: إذن اخرجوا إلى الجبال وانثروا الحَب حتى يأكل الطير والحيوان ويشبع كل مَن يعيش على هذه الأرض من الكائنات الحية.

وهكذا كان الماضي السعيد الذي عادة ما يتغنى به كل عربي مسلم، وهو كان هكذا فعلًا، ماضيًا سعيدًا تحققت فيه الإنجازات وكملت فيه مطالب البشر المادية والمعنوية بحق. لكن هيهات له أن يعود!!

إن الماضي مضى وانتهى. ولن يجدينا نفعًا أن نشد أنفسنا إليه شدًّا وأن نظل ننظر إليه نظرة المتحسر الذي يبكي على أطلاله! إن المشدود إلى الماضي سواء كان البعيد أو القريب أشبه بمَن ينظر إلى الحياة بعينين رُكبتا في قفاه وليس في وجهه!

وبالطبع فالإنسان المشدود إلى هذا الماضي السعيد ويريد استرجاعه لا يفعل ذلك إلا وهو يعاني من شدة وطأة الألم في الحاضر؛ فآلامنا في هذا الحاضر كثيرة كثيرة، وهي كل يوم تزداد عمقًا واتساعًا ولا يعرف أكثر المتفائلين منا كيف يمكن تجاوز هذه الآلام والنكبات التي تتنزل على هذه الأمة صباح مساء، إذ لا يمر يوم أو شهر أو سنة إلا ونجد أن أحوال الأمة تزداد سوءًا ويزداد الراغبون في التهامها والتهام خيراتها شراهة وعنفًا، وتبدو في سلوكهم عدوانية أكثر وشراهة وشراسة لا حد لهما.

أظن أن لا أحد منا ينكر ذلك شبابًا كنا أو شيوخًا، رجالًا كنا أم نساءً، لكن السؤال الذي ينبغي أن يشغلنا هو: ما الحل؟!

ولعل قائلًا يقول هنا: إن هذا السؤال كان سؤال الأسئلة منذ بزوغ عصر نهضة العرب الحديثة. إن ذلك السؤال كان ولا يزال بالفعل هو سؤال الأسئلة الذي لخصه الكثيرون من المفكرين المسلمين والعرب حينما ظلوا منذ أكثر من قرنين من الزمان يتساءلون السؤال المحير: لماذا تقدم الغرب وتخلفنا نحن؟! لماذا تقدم الغربيون وتخلف المسلمون رغم أن تقدم الغرب

كان سنده الحقيقي هو ما نقلوه من علوم العرب ومناهج التفكير والحياة الإسلامية التي كانت بمثابة النور الذي هداهم في بداية عصر النهضة إلى الطريق الصحيح للتحضر والمدنية وتحقيق كل الإنجازات العلمية والفكرية الكبرى التي نقلتهم من عصور الجمود والظلام إلى عصر النهضة والتنوير، من عصر التخلف الحضاري إلى عصر الحداثة والتقدم الذي لا يزال مطردًا حتى الآن؟! لماذا تقدموا هم وتخلفنا نحن؟! لماذا حققوا هم السعادة بتقدمهم ورمونا بالتخلف والجمود ولم يتركوا لنا سوى الحسرة على الماضي التليد والآلام التي تعتصرنا مما نعانيه من تخلف وانعدام القدرة حتى على النقل منهم لما فيه الفائدة وتحقيق التقدم المنشود؟!!

ولعل معظم المفكرين العرب قد أجابوا أوحاولوا الإجابة عن تلك التساؤلات منذ أيام رفاعة رافع الطهطاوي وعبد الحميد بن باديس وخير الدين التونسي وشكيب أرسلان وسليمان البستاني حتى الآن، وكانت إجاباتهم دائمًا تتراوح بين الإشادة بأصالة الماضي وعظمة ما أُنجز فيه، وبين الإشادة بمدى وقوة التقدم الغربي الحديث الذي بدا في تقدمهم العلمي المطرد وإبداعاتهم التكنولوجية المتتالية. ومن هنا فقد أخذت مواقفهم تتشكل بناءً على هذا الإدراك ثنائي النظرة الذي تبلور في قضية طالما شغلت الفكر العربي منذ القرن التاسع عشر حتى الآن. وأقصد ثنائية الأصالة والمعاصرة، أو التراث والتجديد، فلم يعودوا يرون إلا إما أن نحاول استعادة الماضي العظيم بكل ما كان فيه جوهرًا وظاهرًا، أو تركه كلية والبدء من حيث انتهى الآخرون، وكان الحل الأمثل في نظر أصحاب المشاريع الفكرية المعاصرة كزكي نجيب محمود وحسن حنفي وغيرهما هو محاولة التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، وما ذلك إلا من خلال تحليل

التـراث في محاولة للوصول إلى العناصر العقلانية والعلمية التي تتوافق مع العصـر الحاضر بما فيه من تقدم فكـري وعلمي، ومن ثم نكون على أعتاب عصـر جديـد من خلال الجمع بيـن الأصالة والمعاصـرة، أي الجمع بين ما فـي تراثنـا من عناصر ومناهج تحـض على التقدم والحداثـة، وبين العناصر الحضاريـة الغربية المعاصرة بمـا فيها من تقدم وحداثة وقـدرة على التطور حقبة بعد أخرى.

والحقيقـة التـي لا بـد أن نعيهـا أن هـذا الهـم الفكـري لـم يكـن إشـكالية عاشـها هؤلاء المفكرون وحدهـم، بل هم في ذلك إنما يعبـرون عن حالة من الحيرة والارتباك الذي عانى منه الإنسـان العربي - المسـلم منذ ذلك الصراع الحضاري الذي كشـفت عنه بداية الحقبة الاستعمارية لدولنا العربية منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية الحملة الفرنسية على مصر.

إن المفكريـن العرب منذ ذلك التاريخ وحتى الآن إنما هم المرآة الكاشـفة لواقـع حـال العـرب والمسـلمين، فإليهم ينسـب الفضل في بلورة الإشـكالية المترجمـة لحيرة الإنسـان العربي الذي شـعر بمدى تعاسـته حينمـا قارن بين وضعه الحياتي ووضع الإنسان الغربي!

وفي إطار هذه الصورة التي رسـمناها في الفقرات السـابقة تكمن المشكلة المسببة للتعاسة والألم، الماثلة في عمق الشعور بالهوة الحضارية التي تفصلنا عن التقدم الغربي!

والحقيقة أننا سـببنا التعاسة لأنفسـنا منذ بلورنا هذه الرؤية ثنائية الأطراف، وحاولنـا تجاوزهـا بالتفكيـر في إمكانيـة الجمع بيـن البديلين، بديـل التراث، وبديل الحداثة!

وسر التعاسة في اعتقادي يكمن في وقوف الزمن لدينا عند هاتين اللحظتين من لحظات الزمان: الماضي والحاضر، ماضينا العظيم وحاضرهم المشرق الزاهي!! وتجاوز هذه التعاسة إنما يكمن في مسألة غاية في البساطة هي: أن السعادة قد تكون شأنًا من شئون المستقبل دون أن تكون ابنة لذلك الماضي البعيد أو وليدة هذا الحاضر الغربي الزاهي بكل ألوان التقدم!!

إن سعادتنا يمكن أن نصعنها إذا ما تجاوزنا هذه الثنائية البغيضة، وعشنا حاضرنا ونحن نفكر فقط بعيون المستقبل. لقد خلق الله الزمن بلحظاتٍ ثلاث هي: كان وكائن وسيكون، ماضٍ وحاضر ومستقبل. وإذا كان الماضي - كما قلت - قد مضى وانتهى ولا يمكن استعادته بحال، وإذا كان الحاضر يُمكِّن الآخرين بكل ما يصنعونه من تقدم علمي وتقني مطرد يحقق لهم الثروة المتزايدة، من التحكم في كل مَن يحاول التأسي بهم وتكرار تجربتهم المطردة في التقدم والرخاء المادي!

أقول إذا كنا لا نستطيع استعادة الماضي، وإذا كنا لا نستطيع ملاحقة هذا النمط الحاضر من التقدم المادي، فلا يزال أمامنا المستقبل. وليكن التساؤل دائمًا هو: ماذا نحن قادرون على الفعل فيه؟ ماذا لدينا من إمكانيات يمكن استغلالها لتحقيق نمطنا المتفرد في التقدم والتميز؟!

إن شعورنا بالسعادة سيبدأ في الظهور حقًّا حينما ندرك أن الله قد خلق أعيننا وهي تنظر إلى الأمام وليس إلى الوراء أو إلى ما تحت القدم. إن النظر إلى الأمام ببساطة يعني النظر إلى المستقبل، والمستقبل هو مجال الحرية، والممكن، والإرادة. أعني أن المرء حينما ينظر إلى المستقبل فهو ينظر إلى لحظة يستطيع أن يكون حرًّا في التفكير فيها، وهذه الحرية بالطبع ليست مطلقة لأنها محكومة بالممكنات التي يمكن أن يتحكم فيها المرء ليصنع فيها شيئًا

جديـدًا يسـعد به ويحقق مـن خلاله كل ما يطمـح إليه، وتحقيق هـذا الطموح الجديـد مـن خلال الممكن المتسـع الآفـاق لا يكون إلا بأن يقرر الإنسـان أن يفرض إرادته عليه.

وباختصار فكل ما أريد قوله هنا إن السعادة المفقودة في اللحظة الحاضرة، يمكن أن تفرضها أنت على المسـتقبل إذا ما اعتبرته كما قلت مجالًا لممارسـة الحرية في ضوء الإمكانيات المتاحة، وشـيئًا فشيئًا ستتغير حياتك إلى الأفضل وستنجح رويدًا رويدًا في التماس سعادتك بما تحقق من إنجازات على أرض الواقع مستغلًا كل مواهبك وإمكانياتك.

إن الأمـم التـي صنعت حضارتهـا الحديثة كألمانيا واليابـان لم تكن تملك بعد الحربين العالميتين إلا بلدانًا دمرتها الحروب وقضت على كل ما كان فيها مـن مظاهر التقـدم، فما كان من أهلهـا إلا أن تجاوزوا تعاسـة الحاضر وآلامه باسـتغلال مـا لديهم من إمكانيات بشـرية ومادية في أن يعـودوا من جديد إلى واجهة الحضارة العالمية وأن يصبحوا من الأمم المتقدمة. إن هؤلاء لم يتباكوا على الماضي التليد، ولم يعيشوا تلك الثنائية البغيضة ثنائية الماضي والحاضر، التراث والتجديد، الأصالة والمعاصرة!

إن كل امـرئ – فـي واقـع الحال – إنما هـو الاثنان معًا، هـو مالك التراث الـذي يسـري فيـه مسـرى الـدم فـي العـروق ولا أحـد يسـتطيع أن ينخلع من معتقداته وسـماته الثقافية الخاصة، وهو في ذات الوقت ابن اللحظة الحاضرة ومشارك في حضارة العصر رغم أنه قد لا يكون هو المتحكم في مسار تقدمها المعاصر. لكن حينما يريد حقًّا سـيفرض إرادته الفاعلة على الحاضر بالتفكير الجدي في المستقبل.

إن فتح أفق السعادة لنا كأفراد وشعوب إنما يكون بالتفكير في المستقبل بأسلوب علمي نمارس فيه حريتنا ونفرض عليه إرادتنا في التقدم وتحقيق الرخاء والازدهار.

إن المستقبل السعيد لنا كأفراد وكشعوب يقوم على أسس ثلاثة:

1) امتلاك إرادة التقدم.

2) العمل المتقن بجدية في ضوء استغلال كل ما لدينا من إمكانيات مادية وبشرية.

3) ممارسة هذا العمل الجدي بحرية وباستقلال عن النموذج الغربي في التقدم وبعيدًا عن هيمنته.

وقد يقول قائل هنا: كيف ذلك ونحن أسرى هذا النموذج الغربي الذي يتحكم الآن في كل شيء ؟ ولهذا القائل أقول: لقد حققوا هم نموذجهم في التقدم وقت أن كنا نحن حينئذٍ نملك ونتحكم في كل شيء!

إن إرادة صنع التقدم لا بد أن تكون إرادة حرة مستقلة وإن استفادت من كل عوامل ونماذج التقدم المعاصرة. ولا يستطيع أحد مهما امتلك من عناصر القوة أن يوقف مسيرة تقدم شعوب وعت عوامل ضعفها وصحت من غفوتها واكتشفت عناصر قوتها وسخرتها لخدمة مشروعها الحداثي والحضاري.

إن السعادة الإيجابية التي صدرنا بها الحديث عن موضوع السعادة هي المنهج الذي يقوم عليه العمل الإيجابي في المستقبل وبه تتحقق سعادة الفرد وسعادة المجموع بحق. فهل آن أوان إيجابية الأفراد حكامًا ومحكومين في شعوبنا العربية والإسلامية فتتحد إرادتهم وتتوحد نظرتهم لصنع المستقبل السعيد؟!

إن مبشرات المستقبل لدى أمتنا المتمثل في شبابها الواعي وفي قدراته اللا محدودة على الفعل الإيجابي للمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية ككل، قد بدت بشائرها؛ فكلما زادت التحديات واشتدت وطأتها، زادت الاستجابة قوة. ومن قلب شدائد الأزمات والكوارث التي يعيشها الإنسان العربي في اللحظة الحاضرة، ستتولد لديه بلا شك القدرة على المواجهة والتحدي. ومن ثم امتلاك إرادة صنع المستقبل السعيد بإذن الله.

قائمة المصادر والمراجع

[أ] **المصادر العربية:**

أبو نصر الفارابي:

- آراء أهـل المدينة الفاضلة، تحقيـق د. علي عبد الواحد وافي، دار عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية 1984م.

أرسطو:

- علـم الأخلاق إلى نيقوماخـوس، الترجمة العربية لأحمد لطفي السـيد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1924م.
- كتاب السياسـة، الترجمـة العربية لأحمد لطفي السـيد، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1979م.

أفلاطون:

- محـاورات أفلاطون، الترجمة العربية لزكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1937م.
- محـاورة الجمهورية، الترجمة العربية لفؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974م.

- محاورة المأدبة، الترجمة العربية لوليم الميري، مطبعة الاعتماد، القاهرة 1954م.

إيمانويل كانط:

- تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، الترجمة العربية لعبد الغفار مكاوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965م.

ألفريد أدلر:

- معنى الحياة، ترجمة وتقديم عادل نجيب بشري، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة (709)، القاهرة 2005م.

أفلوطين:

- التاسوعات، الترجمة العربية لفريد جبر، مكتبة لبنان، بيروت 1997م.

برتراند رسل:

- انتصار السعادة، الترجمة العربية لمحمد قدري عمارة، المركز القومي للترجمة (409 - 2)، القاهرة 2009م.

لوتشيانو فلوريدي:

الثورة الرابعة - كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني؟، ترجمة لؤي عبد المجيد السيد، سلسلة عالم المعرفة (452)، الكويت 2017م.

ليزا بورتولوتي (إعداد):

الفلسفة والسعادة، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة (2024)، القاهرة 2013م.

محمد بن راشد آل مكتوم:

- تأملات في السعادة الإيجابية، إكسبلورر للنشر والتوزيع، دبي، 2017م.

مصطفى النشار:

- مدخل جديد إلى الفلسفة، طبعة نيويورك للنشر والتوزيع، القاهرة 2017م.
- الإنسان والحكمة والسعادة في الفلسفة اليونانية، الدار المصرية السعودية، القاهرة 2010م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي (الجزء الثالث) أرسطوطاليس ومذهبه الفلسفي ونظرياته العلمية، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 2013م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي (الجزء الرابع) المدارس الفلسفية في العصر الهللينستي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2013م.

[ب] المصادر الأجنبية:

Baumeister (R.E.):

- Meanings of Life , Guilford press, New York , 1991 .

Baylis (N.):

- Learning from Wonderful Lives , Wellbeing Books ,Cambridge , 2005.

Cottingham (J.):

- Philosophy and the Good Life – Reason and the Passions in Greek, Cartesian and Psychoanalytic Ethics , Cambridge University Press , 1998 .

Guthrie (W. K. C.):

- Socrates , Cambridge, At the University Press, 1971.

Harris (J.):

- The Value of Life , Routledge & Kegan Paul , London , 1992.

Kerferd (G. B):

- The Sophistic movment, Cambridge, At the University, Press 1981.

Martin (M. W.) ;

- Happiness and Virtue in Positive Psychology , Journal for the theory of Social Behaviour 37 (1): 89 – 103 .

Zeller (E.):

- Outlines of the History of Greek Philosophy translated by L. R. Palmer, Dover Publication Inc., New York 1981.

فهرس

صفحة

إهداء 5

مفاهيم فلسفية 7

مقدمة 11

الفصل الأول: السعادة ومنغصاتها 19

الفصل الثاني: السعادة الإيجابيـــة 31

الفصل الثالث: السعادة في الحب و إدراك الجمال الحقيقي 39

الفصل الرابع: السعادة الاجتماعيـــة 47

الفصل الخامس: السعادة والفضيلـــة 53

الفصل السادس: السعادة والمستقبـل 71

قائمة المصادر والمراجع 79